

ابن حزم الأندلسي عناصر شخصيته ومحنه السياسية والعلمية

أ.م. محمد كريم محمد الجميلي
الجامعة العراقية-كلية التربية-قسم التاريخ

المستخلص

تحيا الأمم وتنهض باستلهاها لتراثها المشرق، والتاريخ أحداث ووقائع وسير أبطال يصنعون المآثر ويكتبون مجد أمتهم بتضحياتهم، وابن حزم أحد هؤلاء المفكرين الذي أفنى حياته يكتب للأمة سفرًا خالدًا وتأريخًا جديدًا رغم اختلافه مع علماء وفقهاء عصره الذين ناصبوه العداوة وحرصوا عليه الحكام، فتحدى كل ظروف مجتمعه وتحمل السجن والنفي والتهجير واحرق كتبه ولم يتراجع عن أفكاره وأوراقه حتى مات.

Abstract

The nations live and awake when inspired it's heritage, History is a phrase of events , proceedings, biography of defeasance made exploits and write the glory of their nation and their sacrifice. Ibn Hazm is one of these thinkers , He spend his life write for the this nation a new history, in spite of his difference with scholars and jurists of his time, they hated him and incited the judgment. Ibn Hazm chal-lenge all the living society, bear the prison , exile, displacement and burning his books and he didn't give up of his ideas and his papers until he died.

المقدمة

إن الحديث عن ابن حزم والأندلس طويل وشاق ومتشعب، هذا الرجل الذي ملأ صفحات كتب ومؤلفات وبحوث كثيرة سواء له أو عليه قديماً وحديثاً، كلها دارت حول أمور مختلف فيها. أبرزها مذهبه ومعتقداته وشخصيته التي اكتنفتها الغرابة وعدم الوضوح، واختص بها وتميز عن سائر الفقهاء والعلماء من معاصريه أو من سبقهم. يدفعني لذلك أمور كثيرة مهمة في دراسة وتحليل شخصية هذا الرجل أراها قد ألزمتني الكتابة عن سيرته وعصره ومعاناته.

ولعل أهم تلك الأمور هي الموسوعية العلمية التي اتصف بها، فقد كان ابن حزم عالم من طراز فريد، ومتبحر في علوم كثيرة، فهو الفقيه والأصولي والمحدث وعالم الفرق والأديان والأنساب، وهو أيضاً الشاعر والأديب واللغوي وعالم الفلسفة والمنطق إلى غير ذلك من أنواع العلوم والمعارف التي برع فيها وأبدع، وظهرت عبقريته في كثرة إنتاجه العلمي والفكري في كل تلك العلوم.

وكان الدافع الآخر للكتابة هو الاختلاف الشديد بين الباحثين والدارسين لكتبه ومصنفاته، فهناك من تعصب له ودافع عنه وعن طروحاته بكل أشكائها، فسخر قلمه وبذل جهده وألف الكتب الكثيرة في ذلك، وكان هناك فريق آخر قد تعصب عليه بحق أو بغير حق قديماً وحديثاً، فاتهموه بالضلال وأنه متفلسف غير واقعي أو معتزلي أو جهمي وغيرها من

التهمة الكثيرة التي كالوها عليه بغير حق، فتعاملوا مع تراثه بحذر شديد حتى كانت المقولة الظالمة (من الحزم ألا تأخذ عن ابن حزم)، وهذا بلا شك خلاف منهج البحث العلمي الذي يلزم الباحث أو الكاتب أن يكون حيادياً ومنصفاً فيما يبحث ويكتب، هدفه الوحيد هو الوصول إلى الحقيقة التاريخية التي أحاطت بشخصية ذلك الرجل، وكذلك فإن الإنصاف يلزمنا بأخذ ما عند الرجل من خير وهو بلا شك كثير، وبترك ما عنده من خطأ وهو قليل إذا ما قورن بالخير الذي تركه في موسوعاته الفقهية أو التاريخية أو الأدبية.

لقد كان ابن حزم وكما يدل اسمه عليه حازماً في أفكاره، عالماً في ما يدور حوله بمجريات عصره، متفهماً لآراء غيره، حريصاً على دينه ومعتقداته، وعارفاً بما سيؤول إليه مصيره.

وسنرى من خلال البحث كيف عاش هذا الرجل في مجتمعه الأندلسي، حيث لاقى ضروباً من العناء والعداء والنفي والسجن والتغريب، والأدهى من ذلك كله هو إحراق كتبه أمام عينيه، وكاد أن يحرق معها، ولنا أن نتصور عظم المصائب والمشاكل التي واجهها في حياته. ولكنه رغم ذلك لم ينهزم وكانت له إرادة حديدية صلبة ونفساً لم تعرف اليأس والقنوط، وفي ذهنه هدف سام لم يتوان عن تحقيقه حتى لو كلفه حياته وهذا ما سنبينه في هذه الدراسة.

وقد انتظمت هذه الدراسة في أربعة مباحث، كان الأول بعنوان طبيعة عصره وأبرز ملوكه، والثاني جاء

اضطراب، ومضطربة بنيران المتغلبين عليها، فأطفا تلك النيران واستنزل أهل العصيان، واستقامت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة في أيامه، فإليه يعود الفضل في تثبيت ملك بني أمية بالأندلس.

وستحدث عن عصره من الناحية السياسية وجانباً من الحياة الفكرية، وذلك باستعراض أهم الخلفاء والأمراء الذين كانوا على رأس السلطة بالأندلس، والذين لعبوا دوراً هاماً في التأثير على مجريات الحياة والأحداث من جميع النواحي كي تتضح لنا الصورة كاملة على بلاد الأندلس وعلى الإمام ابن حزم الظاهري.

أبرز الخلفاء الذين حكموا الأندلس قبل وأثناء عصر ابن حزم
1 - عبد الرحمن الناصر

هو عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي الملقب بالناصر لدين الله. وهو حفيد مؤسس الخلافة الأموية بالأندلس عبد الرحمن الداخل الملقب بـ (صقر قریش)⁽¹⁾.

وهو أهم الملوك والخلفاء الذين يعود إليهم الفضل في تثبيت الخلافة الأموية والحضارة الإسلامية بالأندلس

بعنوان سيرته الشخصية وتضمن القسم الأول منها اسمه وكنيته ونسبه وولادته والقسم الثاني تضمن نشأته وأسرته ووفاته، والمبحث الثالث بعنوان المحن في حياة ابن حزم، أما المبحث الرابع فكان بعنوان ثقافته ومعالم ظاهريته، وختم البحث بأهم الاستنتاجات ثم المصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها في البحث.

المبحث الأول طبيعة عصره وأبرز ملوكه عصر ابن حزم

يعتبر العصر الذي عاش فيه ابن حزم وترعرع عصر فوضى ومشاكل واضطراب داخلي، ضرب الحياة الاجتماعية الأندلسية في الصميم، وكان عصرًا حافلاً بالأحداث السياسية الكبيرة التي عصفت بالخلافة الأموية بالأندلس، وجرفت معها ممالك كثيرة كانت قائمة آنذاك لبعض الجماعات من العرب وغيرها.

ففي مطلع القرن الرابع الهجري ظهر على الساحة السياسية في الأندلس الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي، وكان شاباً قوياً شهماً وجد في نفسه كل صفات القيادة، من عقل راجح وحنكة سياسية وعسكرية، وشجاعة قل نظيرها، فتصدى للإمارة رغم وجود أعمامه وأعمام أبيه، ولكنه حاز على الخلافة دونهم.

وبالنظر الى جسامه الظروف والحوادث التي كانت سائدة، فقد هيأت الأقدار ذلك الشاب القائد كي ينقذ البلاد والعباد مما كان يحيق بها من الأخطار الخارجية والداخلية. فقد كانت بلاد الأندلس مضطربة أيما

(1) ابن سعيد المغربي، المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،

وكانت أيامه كلها طيبة مع رعيته التي أول ما بدأ
خلافته عمل على تخفيف المغارم عن الرعايا، مما دعا
المؤرخ والشاعر المعروف ابن عبد ربة الأندلسي أن
يقول شعراً يصف فيه أيام عبد الرحمن الناصر بأنها من
أجمل الأيام على الشعب الأندلسي فقال:

بدا الهلالُ جديداً
والملكُ غَضُّ جديداً
يا نعمة الله زيدي
إن كان فيك مزيدُ
إن كان للصوم فطرُ
فأنت للدهر عيدُ⁽⁴⁾

ثم تقاطرت وتكاثرت الوفود عليه من كل أرجاء
أوروبا، ففي عام 336هـ وفدت عليه رسل قسطنطين
ملك القسطنطينية ومعهم هداياهم، ثم جاء رسول
ملك الصقالبة (هوتو) ورسول ملك الفرنجة (البرت)
ورسول ملك الألمان، ثم جاء رسول الملك (أردون)
يطلب السلم فعقد له ذلك سنة 334هـ، ثم طلب ملك
برشلونة الصلح راغباً فيه فأجابه الناصر، ووصل رسول
ملك روما جاء يخطب مودة الناصر فأجابه أيضاً⁽⁵⁾.

وقد أحسن أديب الأندلس ابن حيان في وصفه
فقال: (ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والفرنجة
والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة خاضعة

من كل الأخطار التي كانت تهددها من الداخل
والخارج. فقد استطاع بحنكته العسكرية وحكمته
السياسية من إخضاع الإفرنج وممالك النصارى وبعض
جماعات من العرب الى سلطانه، الأمر الذي جعل كل
هؤلاء يخشون سطوته وقوته.

وكانت خلافته فيها شيء من الغرابة، لأنه كان
شاباً وأعمامه وأعمام أبيه كانوا حاضرين فتصدى
اليها واحتازها دونهم ولم يعترض معترض⁽¹⁾. ووجد
الأندلس مضطربة بالمخالفين مضطربة بنيران المتغلبين
فأطفأ تلك النيران، واستنزل أهل العصيان واستقامت
له الأندلس في سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من
أيامه، استفحل فيها ملك بني أمية. وهو أول من تسمى
منهم بأمير المؤمنين⁽²⁾.

وأخبار الناصر طويلة وكثيرة لا سيما في الجهاد
والغزوات التي كان يقودها بنفسه وقد بلغت ستين
غزوة، وله في العام غزوتان في الربيع والصيف. وقد
منح الظفر على أعدائه واستنزلهم من معقلهم، ودوّخ
البسائط وفتح المعقل وخرب الحصون وأفسد العمار
وجال فيها وتوغل في قاصيتها حتى تم له ما أراد وذلك
ما بين 327هـ - 332هـ⁽³⁾.

(1) المصدر نفسه، 189.

(2) المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،
1/353؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر،
4/176.

(3) ليفي بروفنسال، الحضارة العربية في اسبانيا، ص 26؛ عبد
الكريم خليفة، ابن حزم الأندلسي حياته وأدبه، ص 63.

(4) ابن عبد ربة، العقد الفريد، 239/5؛ ابن سعيد المغربي،

المصدر السابق، 1/189.

(5) بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 60.

راغبة وانصرفت عنه راضية⁽¹⁾.

وفي ظل هذا الاستقرار السياسي كان لا بد أن تصاحبه حركة نهضة قوية في ازدهار وتقدم العلوم والفنون وفي مختلف المجالات العلمية، فقد عنى الخليفة الناصر بتشجيع الأندلسيين على دراسة الرياضيات والفلك والعلوم الدينية المختلفة.

ولم يكتف بعلم المسلمين فقد أشرك علماء يهود في الثقافة الأندلسية لدراسة التوراة والتلمود، مما أدى إلى كثرة المؤلفات والمصنفات العلمية والأدبية المختلفة، فتكونت في قصر الخليفة مكتبة كبيرة أصبحت منهلاً لطلاب العلم وتراثاً يخلد ويمجد الثقافة في بلاد الأندلس⁽²⁾. واستمر الحال هكذا في مسيرة العلم والمعرفة حتى توفي الناصر عام 350هـ وتولى الخلافة بعده ابنه وولي عهده الحكم المستنصر بالله.

2 - الحكم المستنصر بالله

وهو ولي العهد وابن الخليفة الناصر، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه، فجرى على رسمه وسار على سياسته وقام بأعباء الملك، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له، واستقبل من يومه النظر في تمهيد سلطانه وتثقيف مملكته وضبط قصوره وترتيب أجناده، ففضى على خصومه الذين طمعوا في الثغور بعد وفاة والده، فغزا بنفسه عدة غزوات في فردلند وجليقية وبرشلونة

(1) المقري، المصدر السابق، 1/366.

(2) زكريا إبراهيم، ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي، ص 12؛ جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص 20.

والقومس وغيرها⁽³⁾، وعاد من غزواته بما لا يحصى من المال والسلاح والأقوات والسبي، مما أعطى انطباعاً مهيباً عن شجاعته وسطوته كهيبة والده، فبعث إليه الملوك تسأله تجديد الصلح وإقراره وتثبيتته. وقد فعلوا ذلك وهم صاغرين وخائفين من رفض الخليفة الحكم المستنصر لهذا الصلح لأنهم أخلفوا ونكثوا بالمعاهدات المعقودة مع أبيه، فبعثوا إليه من يسترضيه ومعهم أساقفتهم وهداياهم يترجون به بقبول الصلح، فقبل ذلك واشترط عليهم عدة شروط أهمها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين⁽⁴⁾، لكنه ورغم كل تلك المعاهدات استمر بتوسيع رقعة مملكته ولم يطمئن له بال حتى وطئت أقدام عساكره أرض المغرب الأقصى والأوسط ومكناس.

وبعد كل تلك الغزوات والمعاهدات وتثبيتته لأركان الدولة كما فعل أبيه، ازدهرت الحضارة الأندلسية وارتقت بفضل سياسته الحكيمة في دعم الثقافة العربية الإسلامية، فقد كانت سيرته العلمية كسيرة والده، فكان محباً للعلوم، مكرماً لأهلها، جماعاً للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك⁽⁵⁾.

وقد أبدى المقري إعجابه بثقافته قائلاً: (ان الحكم المستنصر بالله كان عالماً نبياً صافي السريرة وسمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن دحيم ومحمد بن عبد السلام

(3) المقري، المصدر السابق، 1/382.

(4) المصدر نفسه، 1/383.

(5) المصدر نفسه، 1/383.

وقد مكث الحكم في الخلافة ستة عشر عاماً كانت بمجملها مع خلافة والده الناصر أزهى عصور الأندلس سياسياً وثقافياً ومعرفياً ظهرت آثاره على الشعب الأندلسي بكل طبقاته وفئاته. ثم أصابه الفالج فلزم الفراش بقصره بقرطبة ومات سنة (366هـ) وولي من بعده ابنه هشام الصغير، وبموت الحكم انتهى العصر الذهبي للأندلس وبدأ عصر الفوضى والاضطراب.

3 - هشام المؤيد

هو هشام بن الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر، تولى الخلافة بعد موت أبيه، وكان صغيراً في السن وعمره تسع سنين. وكان والده الحكم قد ولّاه العهد وجعل له وزيراً هو حاجبه المنصور محمد بن أبي عامر المعافري، وفوض إليه أموره فأستقل بذلك الأمر -كما سئى-.

4 - المنصور بن أبي عامر

كان من الطبيعي أن يستبد بأمر الخلافة الوصي ابن أبي عامر لأن الخليفة ما زال صغيراً لا يستطيع أن يقوم بأمر الدولة، رغم قول شيخ مؤرخي الأندلس ابن خلدون: (إن هشام المؤيد رغم صغر سنه التسع سنين فانه قد ناهز الحلم)⁽⁴⁾. وفعلاً أصبح المنصور هو المسيطر على مقاليد الأمور ورسم لنفسه خطة بارعة للقضاء على الخصوم والمنافسين، وأجبر الأندلسيين على الخضوع لحكومة عسكرية استبدادية اعتمد في تكوينها

الحشني، وزكريا بن خطاب وغيرهم، وأجاز له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء، ولم يكتف بذلك بل كانت له همّة ونشاط تدل على مدى حبه للعلم ولكتب العلم، ولشدة نهمة الفكري كان قد استجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي حتى ضاقت عليه خزائنه⁽¹⁾. ومما يؤثر عنه انه كانت له عناية بالشعر ونظمه، فمما نسب اليه قوله:

الى الله أشكو من شمائل مُترف

عليّ ظلوم لا يدين بما دنّت

نأت عنه داري فاستزاد حدوده

واني على وجدي القديم كما كنت

ولو كنت أدري أن شوقي بالغ

من الوجد ما بلغته لم أكن بنت⁽²⁾

وفضلاً عن كل تلك الشمائل والصفات الحميدة والشجاعة الفائقة، فقد كان الحكم على درجة عالية من التدين والأخلاق، فمما يؤثر عنه انه كان قد شدد في إبطال الخمر في مملكته تشديداً عظيماً، ولم يكتف بذلك بل أمر بإراقتها عند كل من يقبض عليه متلبساً بها، وذهب أبعد من ذلك عندما شاور مستشاريه بأن يستأصل كل أشجار العنب من بلاده كي يتخلص من ذلك الداء الخبيث الذي هو أصل المصائب والجرائم التي ترتكب، فرحمه الله رحمة واسعة⁽³⁾.

(1) المصدر نفسه، 395/1.

(2) ابن سعيد، المغرب، 189/2.

(3) المصدر نفسه، 189/2.

(4) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، 166/4.

وصفه المؤرخون بأنه كان ذا عقلٍ ورأيٍ وشجاعةٍ وبصر بالحروب ودين متين. وان مما يروى عن مكره ودهائه أنه واجه بحزم كل رؤوس الدولة ووزرائها ممن عانده وزاحمه ووقف في وجهه فمال عليهم وقتل بعضهم ببعض، وكل ذلك كان يتم بأمر وبخط وتوقيع الخليفة هشام المؤيد حتى استأصلهم وفرّق جموعهم، وكان عددهم يربوا على الثمانمائة موظف حكومي على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم داخل قصر الخلافة⁽³⁾.

وبعد أن تم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر، عاد الى الجند ليقوي سلطته بعد أن حصر الخليفة واستولى على الدولة وبدأ يتهياً للغزو والجهاد، فقدم القواد للجيش واختارهم من البرابرة ومن زناته وترك القواد العرب وأسقطهم عن مراتبهم لغاية معينة في نفسه. ثم بدأ ببناء مدينة سماها الزاهرة كانت مركزاً لمملكته ونقل إليها خزائن أموال الدولة وأسلحتها⁽⁴⁾.

وقد ذكر معظم المؤرخين عند تسلطه وانفراده بكرسي الخلافة قولهم: (وقعد على سرير الملك وأمر أن يحيا بتحية الملوك، وتسمى بالحاجب المنصور، وأنفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة، وكتب اسمه في السكة والطرز، ومحارم الخلافة بالجملة، ولم يبق لهشام المؤيد

على عناصر من الصقالبة والمولدين والبربر، وبذلك بدأت صفحة جديدة في تاريخ الأندلس وبدأت معها ظهور الدولة العامرية نسبة الى الحاكم الجديد للبلاد المنصور بن أبي عامر⁽¹⁾.

بدأ المنصور عهده بشن حملة تصفيات سياسية طالت كل من ظن أنه خطر على كرسي الخلافة، فبدأ بقتل المغيرة أخو الخليفة المتوفى - الحكم المستنصر-، وكان مرشحاً للخلافة، ثم انتقل الى الحاشية في قصره ليقضي على كل من تسوّل له نفسه بالتجسس وحبك المؤامرات داخل البلاط، وطالت حملته حتى الخدام ورؤسائهم داخل قصر الخلافة⁽²⁾.

وبهذه الإجراءات الأمنية والعسكرية المشددة تمت البيعة للخليفة هشام رغم صغر سنه. وكان المنصور يرسم خطة لنفسه في الخفاء للسيطرة على مقاليد الحكم بالأندلس باعتباره الوصي على الخليفة الطفل. ثم بدا له رأي آخر في الإمساك بالسلطة والاستبداد بها فمكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها فقتل بعضهم ببعض وبذلك تم له ما أراد.

ثم عمل المنصور على فرض الإقامة الجبرية على الخليفة هشام المؤيد ومنع الوزراء من الوصول اليه، وأغدق العطاء على الجند وأعلى مراتب العلماء، وقمع أهل البدع والأهواء، ولكنه ورغم كل ذلك المكر فقد

(1) محمد عبد الله عنان، الدولة العامرية وسقوط الخلافة

الأندلسية، ص 146.

(2) المقرئ، المصدر السابق، 1/396.

(3) المقرئ، المصدر السابق، 1/397.

(4) المصدر نفسه، 1/397.

اضطربت نيران الفتنة التي قصمت ظهر الأندلس بعيد وفاته مباشرة، وخلفه من بعده ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر.

5 - عبد الملك المظفر

وتولى السلطة بعد وفاة أبيه المنصور وتلقب بالمظفر، وجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو، وكانت أيامه كما نقلها المؤرخون أعياداً دامت سبع سنين، وكانت تسمى بالسابع تشبيهاً بسابع العروس، ولم يزل مثل اسمه مظفراً إلى أن مات سنة (398هـ)، وقام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن الملقب بالناصر لدين الله⁽³⁾.

6 - عبد الرحمن الناصر لدين الله (شنجول)

وقام بالأمر بعد وفاة أخيه عبد الملك، وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة الطفل هشام المؤيد والاستبداد عليه والاستقلال بالأمر دونه. وكذلك لم تكن له رؤية سياسية حكيمة ونظرة سليمة للأمور مثل والده، بل كان متسرعاً وطموحاً جداً لئيل ما تبقى من رسوم الخلافة البسيطة في أيدي الخليفة المسكين، فأراد أن يزيد من سلطانه، فطمعت نفسه وتوسعت أحلامه في أن يكون أمير المؤمنين، وهو حلم لم يفكر فيه حتى والده في أوج قوته وسطوته. فقد حمل على الخليفة الصغير هشام المؤيد أن يعهد إليه بالخلافة من بعده فأجاب هشام لذلك كونه مستضعفاً وطفلاً صغيراً⁽⁴⁾.

من رسوم الخلافة إلا الدعاء على المنابر فقط⁽¹⁾. لكنه رغم كل ذلك فقد أنجز وعده بأن لا يترك الغزو بنفسه، فغزاً ستاً وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية، ولا فلّ له جيش وما أصيب له بعث وما هلك له سرية.

وكان من نتائج سياسته العسكرية هذه أن ضرب ملوك البرابرة بعضهم ببعض فاستوثق له ملك المغرب، وأخبت له ملوك زناته وانقادوا لحكمه وأطاعوا سلطانه، فأذل زيري بن عطية ملك مغراوة بفاس على يد ابنه القائد في الجيش واسمه عبد الملك، فقتل على زيري وشرده، ثم مات في مفرّه لأنه تعاطف مع الخليفة المحجور هشام المؤيد سنة (386هـ) بفاس، وعقد للملك زناته على ممالك المغرب ومدنها، وبعد أن استقر الوضع هناك قفل عبد الملك راجعاً إلى قرطبة.

وفي عام (394هـ) وقيل (392هـ) مات المنصور بن أبي عامر وكان منصرفاً من بعض غزواته ودفن هناك بعد أن حكم سبع وعشرين سنة تعثرت الحضارة الأندلسية في سيرها، فأحرقت كتب الفلسفة والفلك والطب وغيرها من العلوم التي كانت موجودة في مكتبة القصر بأمر من عنده استرضاءً منه لجمهرة من الفقهاء الذين كانوا قد بدؤوا يؤلبون العامة عليه⁽²⁾. ولا شك فإن تلك السياسة الاستبدادية كان من نتائجها أن

(3) ابن بسام، المصدر السابق، 1/78؛ الحميدي، جذوة

المقتبس، ص 79.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، 2/44؛ ابن سعيد، المصدر

السابق، 1/176.

(1) المصدر نفسه، 1/398.

(2) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الشام والجزيرة، 1/78؛

زكريا إبراهيم، ابن حزم المفكر الموسوعي، ص 16.

من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم. ودخل المستعين قرطبة في ختام المائة الرابعة (400هـ)⁽¹⁾.

لكن المهدي لم يستسلم وبقيت الحرب سجلاً بين الطرفين، كل منهم يدفع الآخر خارج المدينة، ثم استعان المهدي بملك قسطلية الاسباني مرة ثانية، وتمكن هذه المرة من إخراج المستعين وجيشه من قرطبة وحارب البربر، وقامت موقعة أخرى بين البربر ومعهم المستعين، والمهدي ومعهم النصاري فانهمز المهدي وقتل، وعاد الأمر ثانية الى الخليفة الصغير هشام المؤيد وذلك عام (403هـ).

وبالمجمل نستطيع أن نقول إن الأحداث التي شهدتها قرطبة من معارك طاحنة وثورات عديدة على أولاد المنصور بن أبي عامر وما تبعها وما ترتب عليها من نتائج كارثية عصفت بالأندلس الى هاوية الفتنة ووضعته على شفير الحرب الأهلية لتبدأ مرحلة جديدة وانتكاسة أخرى لبلاد الأندلس تقاطعت عليه طوائف شتى كل منهم يحسب أنه قادر على قطع دابر الفتنة وإعادة الأمور إلى نصابها ولكن دون جدوى⁽²⁾.

وبعد مقتل المهدي ظن المستعين انه قد تخلص من عدو لدود، وان الأمور قد آلت اليه، فدخل قرطبة ومعهم البربر عام (403هـ)، ولم يلبث أن قتل هشام

مما أثار حفيظة الأمويين والقرشيين والمضريين فثارت ثائرتهم، ونقم عليه أهل الدولة فتسبب بفتنة كان فيها حتفه وانقراض دولته، فاجتمع له نفر من هؤلاء وعقدوا أمرهم على إعادة الخلافة لهم وعدم تحويلها الى غيرهم (اليمنيين) فعزلوا هشام المؤيد وقتلوا عبد الرحمن الناصر لدين الله وذلك سنة (399هـ)، فكان عبد الرحمن بهذا التصرف قد حفر قبره بيديه وقضى على دولته العامرية نهائياً بسبب أطماعه التوسعية وأحلامه المريضة، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ الأندلس.

7 - محمد بن هشام (المهدي)

هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء، وقد تولى الأمر بعد مقتل عبد الرحمن الناصر لدين الله. وبدأ ولايته بأن شدد الرقابة والعقوبات الصارمة على رؤساء البرابرة الذين كانوا يقومون بنسج خيوط الفتنة سراً، فكان من أمرهم انهم قد هاجموا المدينة (قرطبة) وخلعوا المهدي وجاءوا بسليمان بن الحكم الناصر الذي نهضوا به إلى ثغر طليطلة، ثم نهضوا في جموع من البرابرة والنصاري الى قرطبة ليقضوا على المهدي وجيشه، مما دفع المهدي الى الاستعانة هو الآخر بملك قسطلية الاسباني النصراي (ابن اذفونش) فكان النزاع عنيفاً بين المهدي والمستعين، وراح كل واحد منهما يتقوى بالعدو.

وقد نهض المستعين في جنود البرابرة والنصاري الى قرطبة، وبرز إليه المهدي في كافة أهل البلد، والتحم الجيشان وكانوا أكثر من عشرين ألف مقاتل وهلك

(1) المقرئ، المصدر السابق، 1/426.

(2) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف حتى الفتح المرابطي، ص 13؛ زكريا ابراهيم، المصدر السابق، ص 18.

وأقام ابن حمود في الملك سنتين، ثم قتله فتیان من الصقالبة كانوا يعملون في خدمته عام (408هـ) فولي مكانه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون، ونازعه الأمر بعد أربع سنين من خلافته يحيى ابن أخيه وتلقب بالمعتلي، وفرّ عمه المأمون إلى اشبيلية. وهكذا بقيت الفوضى تعم قرطبة، لا يكاد يمر عام إلا وتحدث فيه الفتن والخلافات والنزاعات بين كل الأطراف المتنازعة على السلطة في جزيرة الأندلس، كل يريد أن يستبد بالملك ويستأثر به دون الآخرين⁽³⁾.

وبحلول عام (414هـ) كان قد ضعف أمر آل حمود فثار أهل قرطبة عليهم واتفقوا على رد الأمر لبني أمية، فقام عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخو المهدي يطلب الخلافة لنفسه وتلقب بالمستظهر بالله، يدفعه لذلك أهل قرطبة وفي مقدمتهم ابن حزم. وبالفعل تولى المستظهر الخلافة وكان له من العمر اثنان وعشرون عاماً، وكان رحب الصدر رقيق الطبع شاعراً وناثراً وخطيباً بليغاً، وقد اختار ابن حزم ليكون وزيراً له، لكن الأمور لم تسر بيد ذلك الخليفة فقتل بعد شهرين من ولايته⁽⁴⁾.

وخلال هذه المدة والتي بعدها كان قد تعاقب على الملك خلفاء مستضعفون من بني أمية تارةً ومن العلويين تارةً أخرى، كان أبرزهم المستكفي محمد بن

المؤيد سرّاً، كل تلك الأمور جعلته على درجة عالية من الثقة بأنه تربع على كرسي الخلافة، وبدأ يتقاسم الملك مع البرابرة فاستقل كل واحد منهم بإقليم وعينوا لكل ولاية من أقاليمهم والي يحكمها ويدبر أمرها.

وفي تلك الظروف المعقدة والشائكة ظهر على الساحة السياسية خيران العامري حاكم مدينة المرية، وراح يكتاب الأدارسة، ويحرض الناس على خلع المستعين مما مهد لظهور دول الطوائف، فقد ظهر ابن عبّاد باشبيلية، وابن الأفطس ببطليوس، وابن ذي النون بطليطلة، وابن عامر ببليسية، وابن هود بسر قسطة، ومجاهد العامري بدانية⁽¹⁾.

وكان علي بن حمود من الأدارسة في المغرب قد استغل ظرف الضعف والانقسام، فسار إلى قرطبة مع البربر ودعا لنفسه واستولى على الملك بعد أن دخل قرطبة وقتل المستعين سنة (407هـ) وبذلك انتهت الخلافة الأموية وبدأت دولة العلويين بالظهور.

ولكن أهل قرطبة لم يكونوا ليقبوا مكتوفي الأيدي رغم سيطرة العلويين على بلادهم، فبايعوا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك الناصر ولقبوه بالمرتضى عام (408هـ)، وقاد هذا الأخير جيشاً لإخراج ابن حمود من قرطبة، ولكنه اغتيل، وكان ابن حزم ضمن هذا الجيش الذي خسر المعركة ووقع في الأسر (2)(27).

(1) المقرئ، المصدر السابق، 1/430.

(2) المقرئ، المصدر نفسه، 1/430، بروفنسال، الحضارة العربية، ص 40.

(3) المقرئ، المصدر نفسه، 1/433.

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 18/186؛ الحميدي، المصدر السابق، 1/57.

والعرب والموالي بالجهات واقتسموا خطتها، وتغلب بعض على بعض، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ولاذوا بالجزى للطاغية أن يُظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان، حتى قطع عليهم البحر ملك العدو وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فخلعهم وأخلى منهم الأرض⁽²⁾.

لقد شهد ابن حزم حقبة انحلال الخلافة الأموية واستقلال كل والٍ بولايته، ورأى بأم عينيه المرحلة الأولى من عهد ملوك الطوائف، وكيف كانت مرحلة حرجة وانعطافة خطيرة في تاريخ الأمة السياسي والفكري والحضاري قد تجلّى أثرها على سلوكيات ابن حزم وعلى كتاباته أيضاً، فنراه قد انتقد أمراء الطوائف وذكر مثالبهم وبغيهم وتفريطهم بحق دينهم، رغم أن قسماً منهم قد حاول أن يلمّع صورة مملكته ويظهرها للناظرين بأبهى صورة وذلك من خلال رعاية بعضهم للعلم والعلماء مما أعطى دفقة معنوية لنشاط حركة العلوم والفنون، وحصول تنافس بين الولايات في حركة التأليف والتصنيف في شتى فنون المعرفة الإنسانية.

هذا هو العصر الذي عاش فيه ابن حزم، وكما رأينا فقد كان عصراً ساد فيه الاضطراب السياسي والصراع على السلطة، وكثرت فيه الفتن والحروب

عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، وقد سجن ابن حزم وابن عمه الشاعر أبا المغيرة، وهدمت قصور الناصر في عهده. واستمر الحال هكذا يتأرجح بين الطرفين الأموي والعلوي الى أن بويع هشام بن محمد بن عبد الملك ابن الناصر المرواني الملقب المعتد بالله سنة (418هـ) فاستوزر هو الآخر ابن حزم مرة ثانية⁽¹⁾. وكانت الأسرة الأموية تعاني من التفكك والاضطراب وعدم وجود اتفاق أو توحيد في الرأي مما أدى الى إضعاف البيت الأموي سياسياً فكان المعتد هو آخر خلفائهم وبه ختم ملك بني أمية بالأندلس عام (422هـ).

وعلى أثر هذه الأوضاع ظهرت ملوك الطوائف في الأندلس فأخرجت الفتنة رأسها لتدخل البلاد في نفق مظلم ذقت فيها الوليات والحروب والفتن والقتال بين أبناء الدين الواحد، فأصبحت الأندلس في مرحلة حالكة السواد كانت أشد على الأمة الإسلامية من غزو التتار لديار الإسلام في المشرق، ولتغرق البلاد في أتون صراع مرير استمر ثمانين عاماً. ولندع المؤرخ الأندلسي الشهير المقري التلمساني يصف لنا نهاية الدولة الأموية بالأندلس، وعبر عن حالتها المريرة بكلام بليغ يدعو الى الأسى والحزن والتأمل في حال الأمة كيف كان وكيف أصبح فقال: (وانقطعت الدولة الأموية من الأرض وانتشر سلك الخلافة بالمغرب، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر

(2) لسان الدين ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، 4/

87؛ المقري، المصدر السابق، 1/439.

(1) الحميدي، المصدر السابق، 1/57.

والثأر والانتقام بين أبناء البلد الواحد والدين الواحد. الفرق واضحاً سواءً في العرق أو الدين أو الهوية، وكذلك فقد حدث الاختلاف في أصل عربيته، هل هو من العرب فعلاً (صلبية) أم من الموالي؟

والرواية الأكثر شيوعاً تقول انه من أصل فارسي، وان أجداده القدامى قد دخلوا الإسلام مبكراً منذ عصر الفتوحات الإسلامية الأولى لبلاد فارس، وأصل هذه الرواية أن جده الأعلى كان مولى للقائد الأموي يزيد بن أبي سفيان بن حرب⁽²⁾ المعروف بيزيد الخير شقيق معاوية بن أبي سفيان، وانه كان فارسياً نصرانياً ثم أسلم.

ثم قالوا ان جد ابن حزم الأعلى كان ينتسب الى الأمويين نسبة موالاة، وبقيت هذه الأموية في أصل نسبه، وقد دافع عنها وتعصب لها كثيراً. فقد أورد الذهبي في تاريخه قوله: (وكان مما يزيد شأنه تشييعه لأمرأ بني أمية ماضيهم وبارقيهم واعتقاده لصحة إمامتهم حتى لنسب الى النصب)⁽³⁾.

وربما كان هذا هو السبب الذي عرّض ابن حزم لكثير من الظلم والاضطهاد والعنف، وقد أيد هذه الرواية معظم المؤرخين القدماء والمعاصرين، ولعل ما يؤكد صحة هذه الرواية هو ما ورد فيها أن جد لابن حزم واسمه (خلف بن معدان) قدم الى الأندلس في

المبحث الثاني سيرته الشخصية

أولاً: اسمه وكنيته ونسبه وولادته

اسمه: هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الأموي مولاهم الفارسي الأصل الأندلسي القرطبي الظاهري⁽¹⁾.

كنيته: اشتهر ابن حزم بكنيته - أبو محمد - في جميع المصادر، وذلك باتفاق جميع المؤرخين.

نسبه: اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً وعميقاً في أصل أسرة ابن حزم وجذورها العرقية الى أي قومية تعود. هل هي فارسية أم عربية أم قوطية؟ أو غير ذلك، وكل ما لدينا روايات محدودة، فيها اختلاف كبير من نواحي واتجاهات عديدة، فما بين رواية وأخرى نرى

(1) انظر ترجمته في: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 2/137؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، 3/241؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/75؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/325؛ المراكشي، المعجب، 1/246؛ المقري، نفح الطيب، 2/577؛ ابن سعيد المغربي، المغرب في حلل المغرب، 1/405؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، 1/435؛ القنوجي، أبجد العلوم، 2/408؛ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص 75؛ الحميدي، جذوة المقتبس، 2/389؛ ابن بشكوال، الصلة، 2/605.

(2) ابن بشكوال، الصلة، 2/395؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 12/237؛ الحميدي، جذوة المقتبس، 2/389.

(3) الذهبي، تذكرة الحفاظ، 3/1146؛ عبد الكريم خليفة، ابن حزم الأندلسي حياته وفكره، ص 16؛ حسان محمد، ابن حزم الأندلسي عصره وفكره ومنهجه التربوي، ص 32.

وقت معين وهو على روايتين أيضاً:

الأولى: وتقول انه جاء مع جيش القائد موسى بن نصير عام (93هـ) عند فتحه لشمال افريقية، والثانية تؤكد انه هاجر الى الأندلس مع المؤسس الأول للدولة الأموية عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) عام (138هـ)⁽¹⁾. وهذه الرواية اذا تأكدت صحتها فإنها تفيدنا في أمور ثلاثة هي: قدم عهد الأسرة في الإسلام، وأصلها الفارسي، وولائها الأموي⁽²⁾.

الثانية: تشكك في أصوله الفارسية وتنكر أيضاً صحة ولائه لبني أمية. وهي رواية للمؤرخ الأندلسي ابن حيان الذي عاصر ابن حزم، وكذلك فعل ابن بسام وابن سعيد المغربي فذكروا في ترجمتهم الطويلة لابن حزم: (و ادعى أنه من الفرس وهو حامل الأبوة من عجم لبلة)⁽³⁾.

وقال ابن حيان: (وقد كان من غرائبه انتماءؤه في فارس، واتباع أهل بيته له في ذلك بعد حقبة من الدهر، تولى فيها أبوه الوزير، المعقل في زمانه والراجح في ميزانه، أحمد بن سعيد بن حزم لبني أمية أولياء نعمته، لا عن صحة ولاية لهم عليه. فقد عهده الناس حامل الأبوة مولد الأرومة، من عجم لبلة، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام، لم يتقدم لسلفه نباهة، فأبوه أحمد

على الحقيقة هو الذي بنى بيت نفسه في آخر الدهر، وعمده بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأي..⁽⁴⁾.

ولا نعرف ما هو السبب الذي دفع كلاً من المؤرخين ابن بسام وابن سعيد في إرجاع نسب ابن حزم الى أصول أعجمية اسبانية، لأنهم بذلك قد فتحا الباب على مصراعيه أمام المستشرقين المغرضين والغير منصفين عندما اتخذوا من كلام ابن بسام وابن سعيد حجة لإخراجه من دائرة عباقرة وفلاسفة الحضارة العربية الإسلامية، وإصاقه بالموروث الأوربي المسيحي، وكأن الأمة الإسلامية عاجزة وغير قادرة على إنجاب المئات منهم. فهذا هو المستشرق الاسباني (دوزي) يقول: (ان في شخصية ابن حزم تأثيرات وراثية مسيحية جاءت من أصله الاسباني). ولم يكتفِ المستشرقون بذلك بل اختلقوا روايات تجعله من أصول مسيحية عاشت في الأندلس ثم دخل جده الإسلام في عهد متأخر⁽⁵⁾.

وقد أيد تلك الرواية التي تجعل أصوله اسبانية الأستاذ طه الحاجري الذي جزم بناء على رواية ابن حيان بقوله: (إذن فابن حزم خرج من أسرة من أهل اسبانيا الغربية، كانت تقيم في لبلة وكانت تدين بالنصرانية، وظلت على نصرانيتها بعد الفتح الإسلامي أمداً غير قصير حتى اعتنق حزم الذي يحمل وينتسب اليه

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 184 / 18؛ عبد الكريم

خليفة، المرجع السابق، ص 17.

(2) احسان عباس، ابن حزم عصره ومنهجه وفكره التربوي، ص 33.

(3) ابن سعيد، المغرب، 405 / 1.

(4) ابن بسام، الذخيرة، 142 / 1؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 250 / 12.

(5) لسان الدين ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة،

111 / 4؛ احسان عباس، المرجع السابق، ص 32.

صاحبنا الإسلام في منتصف القرن الثالث الهجري⁽¹⁾.
وقد رد الكثير من الباحثين المعاصرين على دعوة ابن بسام وابن سعيد، وفندوا رواياتهم لأسباب عديدة، أهمها أن ابن حزم نفسه قد ثبت أصوله وجذوره في شعره وفي ضميمته عن بني حزم، والمسلمون مؤمنون على أنسابهم، فقال:

سما بي ساسان ودارا بعدهم

قريش العلى أعياصها والعنابس

فما أحررت حرباً مراتب سؤدي

ولا قعدت بي عن ذرى المجد فارس⁽²⁾

وفضلاً عن ذلك، فهو رجل عالم بالأنساب، وما كتابه المشهور - جهرة أنساب العرب - إلا خير دليل على ذلك، ومن يقرأه فسيرى بالدليل القاطع مدى تبحره بذلك العلم الذي اختصت به الأمة الإسلامية دون سائر الأمم. فكيف يثبت أنساب كل قبائل العرب ويهمل نسبه.

هذا وقد ردّ الباحثون المعاصرون أيضاً على من أرجع أصله إلى مسيحيي الأندلس بأنه لا يحكم على الإنسان بنسبة دمائه وإنما بفكره ومعالم إنتاجه العلمي⁽³⁾، فقد كان خصماً لدوداً ومجادلاً ومفتحاً للمفكرين اليهود والنصارى، وجرت على لسانه مناقشات حادة لكلا الديانتين في كتابه (الفصل بين الملل والنحل). وكذلك

فإن كتابه المنشور ضمن رسائل ابن حزم (الرد على ابن النغيلة اليهودي)، يوضح بدون أدنى شك أنه مسلم وله عقيدة يعتز بها وينافح عنها ويموت دونها. بقي أن نذكر أنه هناك رواية للمستشرق الألماني المعروف بروكلمان تجعل من أصله غير عربي أو فارسي فقال: (إن جدّه الأعلى كان اسبانياً من أصل قوطي أو كليّ أيبيري ثم أسلم فيما بعد)⁽⁴⁾.

ولادته

ولد ابن حزم في قرطبة بالجانب الشرقي في ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الفجر آخر يوم من شهر رمضان سنة (384هـ)⁽⁵⁾. وقد ذكرت الكثير من كتب التراجم تاريخ ولادته هذا وأكدت بدون اختلاف وهو نقلاً عن صاعد الأندلسي الذي روى ذلك عن ابن حزم نفسه⁽⁶⁾.

ثانياً: نشأته وأسرته ووفاته

عاش ابن حزم ونشأ في كنف والده الوزير أحمد بن سعيد المعروف بولائه الأموي المتين، والذي وزر للمنصور بن أبي عامر عام (381هـ)، وقد شغل أيضاً منصب الوزير للمظفر بن المنصور الذي تولى الحكم بعد وفاة والده سنة (392هـ)⁽⁷⁾. ومن هنا فقد نشأ

(4) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 313.

(5) المقرئ، نفح الطيب، 2/277؛ ابن بشكوال، الصلة، 2/396.

(6) صاعد، طبقات الأمم، ص 102؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، 2/396.

(7) طه الحاجري، ابن حزم صورة أندلسية، ص 36؛ منشد، المرجع السابق، ص 59.

(1) طه الحاجري، ابن حزم صورة أندلسية، ص 17.

(2) ياقوت الحموي، معجم الادباء، 12/135.

(3) عبد المجيد منشد، المنهج التاريخي عند ابن حزم الظاهري، ص 53.

ابن حزم قي قصر أبيه نشأة طيبة مباركة كان فيها من المترفين المنعمين، وفي بيئة أرسنقراطية مثقفة فلم يعرف في صباه الحاجة أو الحرمان ولم تضطره الظروف الى الترامي على أبواب الرؤساء أو الوزراء، وإنما كان من ذوي السؤدد والرياسة والثروة.

إذن فقد كانت الظروف في صباه مهينة تماماً وسلسلة جداً كي ينشأ هذا الصبي ليكون عالماً وفقياً وشيخاً في علوم كثيرة ومختلفة. ولم لا وهو قد تربى في قصر والده الشامخ الوزير أحمد بن حزم وفي أرقى وأبهى وأجمل ضاحية من ضواحي قرطبة والتي تسمى بالزاهرة⁽¹⁾.

وواضح ان اسم الضاحية (الزاهرة) يعكس مستواها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، فقد كانت ضاحية لكبار رجال الدولة والأعيان وأصحاب المال والسلطة والجاه. وكان قد بناها المنصور بن أبي عامر عام (368هـ) وتفنن في بناءها وأغدق عليها الأموال الطائلة، وأقامها على طرف البلد على نهر قرطبة، حيث الأجواء اللطيفة الهادئة والبساتين والحدائق الغناء، فكانت آية في جمالها وروعة في بناءها فضلاً عن إنها أصبحت مركزاً للدولة ومقرراً للوزراء والقواد والكتاب الذين يعملون في دواوين الدولة⁽²⁾.

ابن حزم قي قصر أبيه نشأة طيبة مباركة كان فيها من المترفين المنعمين، وفي بيئة أرسنقراطية مثقفة فلم يعرف في صباه الحاجة أو الحرمان ولم تضطره الظروف الى الترامي على أبواب الرؤساء أو الوزراء، وإنما كان من ذوي السؤدد والرياسة والثروة.

إذن فقد كانت الظروف في صباه مهينة تماماً وسلسلة جداً كي ينشأ هذا الصبي ليكون عالماً وفقياً وشيخاً في علوم كثيرة ومختلفة. ولم لا وهو قد تربى في قصر والده الشامخ الوزير أحمد بن حزم وفي أرقى وأبهى وأجمل ضاحية من ضواحي قرطبة والتي تسمى بالزاهرة⁽¹⁾.

وواضح ان اسم الضاحية (الزاهرة) يعكس مستواها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، فقد كانت ضاحية لكبار رجال الدولة والأعيان وأصحاب المال والسلطة والجاه. وكان قد بناها المنصور بن أبي عامر عام (368هـ) وتفنن في بناءها وأغدق عليها الأموال الطائلة، وأقامها على طرف البلد على نهر قرطبة، حيث الأجواء اللطيفة الهادئة والبساتين والحدائق الغناء، فكانت آية في جمالها وروعة في بناءها فضلاً عن إنها أصبحت مركزاً للدولة ومقرراً للوزراء والقواد والكتاب الذين يعملون في دواوين الدولة⁽²⁾.

ومما لا شك فيه فان تلك القصور الفارحة كانت تعج بالخدم والحشم والجواري والإماء اللاتي كن يعملن

إذن فهو قد أعطانا صورة واضحة المعالم عن عالمه الصغير داخل قصر والده الذي لم يكن ليغفل عن ولده الصغير وهو يتنقل بين أحضان النساء من يد الى يد دون رقيب أو حسيب، بل كان دقيقاً وصارماً في هذه المسألة، فقد صرح ابن حزم بتلك الرقابة قائلاً: (وكان السبب فيما ذكرته أي كنت وقت تأجج نار الصبا، وشرّة الحداثة، وتمكن غرارة الفتوة مقصوراً محضراً عليّ بين رقباء ورقائب)⁽⁴⁾.

(3) طوق الحمامة، ص 166.

(4) المصدر نفسه، ص 166؛ عبد الحليم عويس، ابن حزن الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ص 53.

(1) بروفنسال، المرجع السابق، ص 130.

(2) عمر فروخ، ابن حزم الكبير، ص 21-20؛ منشد، المرجع السابق، ص 9.

وهكذا إذاً كانت الحالة داخل القصر منضبطة ملتزمة وغير منفلة من حريم ونساء محتشمات يعلمنه أشرف العلوم وأجلها القرآن الكريم ثم الأشعار والخط وغيرها. كل تلك الأسباب كانت قد حفظت ابن حزم من انحراف الشباب ووجهته الوجهة السليمة الصحيحة لتحصيل مبادئ العلوم المختلفة ولكن ورغم كل تلك التحولات فإن لهذه النشأة في هذه البيئة النسائية ستكون لها حتماً آثاراً واضحة على السلوك والتصرفات التي ستظهر على شخصيته التي ربما ستأخذ نمطاً معيناً في التأثر بالتربية النسائية سواء شعر بهذا أم لم يشعر.

وبعيداً عن التوغل في الآثار الشعورية واللاشعورية للتربية النسائية من الحريم والجواري، فالتوقع أن يكون تأثيرها مختلفاً عن تربية الرجال المؤدبين⁽¹⁾. وفي ذلك يقول ابن حزم عن نفسه: (لم يكن كدّي مذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً إلا تعرّف أسباب النساء والبحث عن أخبارهن، وتحصيل ذلك، وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن، وأصل ذلك غيرة شديدة طُبعت عليها، وسوء ظن في جهتهن فطرت به)⁽²⁾.

وفي هذا يقول الأستاذ حسان محمد: (إن العاملين في الدراسات التربوية يعلمون أن تأنيث هيئات التدريس - حتى في المرحلة الابتدائية - له بعض الآثار السلبية

ولنا أن نتصور تلك البيئة التي نشأ بها ورغم أنها كانت مشحونة بكل معاني الترف واللذات، ولكنها مع ذلك كانت بيئة تسيطر عليها أوامر الدين وتعاليم الخلق وضوابط الترفع والتعفف، إذ كان بيت ابن حزم

(3) ابن حزم وفكره التربوي، ص 41.

(4) ينظر: المقدمة التي كتبها الدكتور الطاهر المكي في كتابه

(ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ص 13).

(1) حسان محمد، ابن حزم عصره ومنهجه وفكره التربوي،

ص 40.

(2) طوق الحمامة، ص 141.

وأحسّ في قلبي غصّة أمرّ من العلقم تحول بيني وبين توفية الكلام حق مخارجه⁽³⁾.

وبعد سنين قليلة، أي في سن الشباب كان ابن حزم قد أصيب بمرض آخر أشدّ من مرضه الأول زاد من معاناته وآلامه. وزادت معها معاناة والديه وهو التهاب الطحال فقال: (لقد أصابني علة شديدة ولدت عليّ ربواً في الطحال شديداً، فولد عليّ ذلك من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق أمراً حاسبت نفسي عليه اذا فكرت تبدّل خلقي، فاشتد عجبي من مفارقتي لطبعي)⁽⁴⁾.

ولعلّ مرضه هذا قد حدث فيه مضاعفات جرّته الى مرض ثالث كان أقرب الى فقدان الذاكرة المؤقت فقال: (وأنا أصابني علة فأفقت منها، فذهب ما كنت أحفظ إلا ما لا قدر له، فما عاودته إلا بعد أعوام)⁽⁵⁾.

وهكذا تناولته الأقدار في ابتلاءه من مرض الى مرض في طفولته وصباه وشبابه، ومن يدري ربما كانت هذه العلل والأمراض التي أصيب بها هي السبب في تغير سلوكه وتصرفاته عند بلوغه وجعلت منه إنساناً ذو مزاج خاص، فأصبح ضيق الخلق، قليل الصبر، شديد الخصومة، سريع الانفعال، حاد اللسان، وبقيت معه معظم تلك الخصال حتى مماته.

ومما لا شك فيه فان هذه الأمراض التي أصابته

من البيوت المحافظة على تقاليد التصون، لان أبوه الوزير وكما ذكر مترجميه أنه كان رجلاً متزناً بعيداً عن الاستهتار والاستخفاف⁽¹⁾.

ولأجل كل تلك المغريات التي كان تحيط بقصور الأمراء والوزراء نراه يسارع الى درء الشبهة عن نفسه عندما يقسم أيماً غليظة أن علاقته بنساء القصر كانت علاقة بريئة طاهرة، وحبّه لهن نقياً شريفاً لا تخالطه الآثام والأدناس والأرجاس، لأن نساء القصر كنّ لا يتحرجن منه ويأنسن به ويُفضين إليه بأسرارهنّ فيقول: (ومع هذا يعلم الله وكفى به عليماً، أي بريء الساحة، سليم الأديم، صحيح البشرة، نقي الحجرة، وإني أقسم بالله أجل الاقسام أي ما حللت مئزري على فرج حرام قط، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا منذ عقلت الى يومي هذا، والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى، والمستعصم فيما بقى)⁽²⁾.

ولكنه ورغم عيشه في هذه الأجواء الهادئة الناعمة اللطيفة، فإن ابن حزم كان قد أصيب في طفولته الأولى بمرض خفقان القلب، وكان من الطبيعي أن ينال المزيد من العناية والرعاية والاهتمام. وكذلك المحبة والدلال من أبويه اللذين ما برحا متأثرين لما يرونه في فلذة كبدهم وهو يتألم من مرضه، ويظل مؤثراً عليه في حالتي الفرح والحزن، فقال يحكي عن نفسه: (إني لأصاب بالمصيبة الفادحة، فأجد قلبي ينقطر وينقطع،

(3) المصدر نفسه، ص. 145.

(4) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص 211.

(5) المصدر نفسه، ص 203.

(1) الحاجري، ابن حزم صورة أندلسية، ص 44.

(2) طوق الحمامة، ص 125.

صغيراً كانت من الأمور التي أحاطته بجو خاص من العطف والعناية والرعاية، وجعلت القلوب تشفق عليه وتخشى أن يناله شيء من المكروه يعرضه للخطر. ويرى الدكتور طه الحاجري أن هذه المرحلة بهذه الصفة الغالبة عليها كانت أخطر فترة في تاريخ حياته، وأبعدها أثراً في تكوين صفاته النفسية، وفي تهيئة شخصيته تلك الهيئة الخاصة التي عرفناه بها بعد، فهي في رأينا التي أفسدت عليه حياته كبيراً بما خلّفت فيه من الاستيحاش وإساءة الظن بالناس والفجاجة في الحياة الاجتماعية⁽¹⁾. وبعد أن بلغ ابن حزم سن الشباب، كان لا بد لوالده أن يغيّر من طريقة تربيته السلوكية والعلمية. فبعد النشأة الأولى بين النساء والجواري انتقل به إلى تربية الرجال، فعهد به أبوه إلى أجل مشايخ قرطبة وهو الشيخ أبي الحسين بن علي الفاسي، وكان عالماً ورعاً منصرفاً عن الدنيا زاهداً في النساء، حتى قال فيه ابن حزم مبدئياً إعجابه بشخصيته فقال: (فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت أبا الحسين بن علي الفاسي في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن زيد الأزدي شيخنا وأستاذي رضي الله عنه، وكان أبو الحسين المذكور عاقلاً عاملاً عالماً ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد في الآخرة، وأحسبه كان حصوراً، لأنه لم تكن له امرأة قط، وما رأيت مثله جملةً، علماً وعملاً ودينياً وورعاً، فنفعني الله به كثيراً، وعلمت موضع الإساءة وقبح المعاصي، ومات أبو علي رحمه الله

(1) الحاجري، المرجع السابق، ص 55.

قي طريق الحج⁽²⁾. ثم بدأ يتلقى الدروس على يد المشايخ المشهورين في مساجد قرطبة، وقد بلغ من العمر سبعة عشر عاماً، فدرس المنطق عند الشيخ محمد بن الحسن القرطبي المعروف بابن الكتاني، ودرس الحديث عن كثيرين أبرزهم يحيى بن مسعود ابن وجه الجنة وهو أعلى شيخ عنده. وكذلك المحدث المعروف أحمد بن قاسم بن أصبغ⁽³⁾.

وهكذا تلقى العلم وسمع من كثيرين أفاضت المصادر في ذكرهم، ويقدر المؤرخون عدد المشايخ الذين تلقى عنهم ابن حزم بعشرين عالماً بارزاً ومفكراً وأديباً وفقهياً ومحدثاً وعالم كلام وفيلسوف ومنطقي ومؤرخ⁽⁴⁾. وان كل تلك العلوم قد اكتسبها بطرق شتى، فقد أخذ العلم من الشيوخ عن طريق المساجد وحلقات العلم التي كانوا يعقدونها. وقبلها كان قد أفاد من المكتبة الموجودة في قصر الخلافة وما تحويه من ثروة علمية هائلة لمصادر مختلفة في علوم شتى. واكتسب اللغة والشعر والبلاغة من جلسات الأدباء والشعراء التي كانت تعقد في قصور الأمراء والقواد وكبار رجالات الدولة عندما كان والده وزيراً للخليفة. وأفاد من علماء الكلام والفلاسفة من خلال المناظرات والمساجلات التي كانت تدور بينهم

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 173.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/325؛ الذهبي، سير

أعلام النبلاء، 3/184.

(4) المصدر نفسه، 3/325؛ المصدر نفسه، 3/184.

في منتديات قرطبة الأدبية⁽¹⁾.

وفاته

توفي الامام ابن حزم بعد أن بلغ من العمر اثنان وسبعون عاماً قضاها وكما رأينا بتطواف في مدن الأندلس جميعها بين اختيار واكرهه، ولكنه ورغم كل المحن التي تعرض لها بقي ثابتاً على مبادئه مدافعاً عنها حتى مات، ولم يرفع راية الاستسلام، وكان أشبه بالشعلة التي كلما عصفت حولها العواصف زادت توهجاً واشتعالاً، ولكن وكما يقال لكل بداية نهاية، فقد انتهت حياة هذا الفقيه والمؤرخ والأديب العظيم بقرية (منت ليشم) من أعمال لبلة موطن آباه وأجداده مع ثلة من طلابه يذاكرهم على العلم والمثابرة فيه، منصرف تماماً الى التأليف والتصنيف حتى بلغت مؤلفاته وقر بعير، وبقي على تلك الحال حتى مات رحمه الله في شعبان سنة 456هـ⁽²⁾.

المبحث الثالث

المحن في حياة ابن حزم

لقد عانى ابن حزم من الفتن والمحن طوال حياته، ولا يكاد يسلم صاحب حق من البلاء، فلم يكن محضوفاً في عصره الذي عاش فيه سواء في طفولته أو صباه أو شبابه وحتى كهولته، فكل ما عاناه صغيراً

من كثرة الأمراض التي ألمت به وتناولته الأقدار كبيراً، فكانت المحن والمصائب تترا عليه. ولا يكاد يمر عام إلا ويتعرض لنكسة جديدة أسوأ من العام الذي قبله، وأصدق ما قاله الدكتور الطاهر المكي عنه: (إنَّ الإنسان لا يختار لحظات مولده)⁽³⁾، فقد كانت ولادته في عصرٍ مريرٍ وحزين شهد فيه نهاية الخلافة الأموية في الأندلس وأفولها، وهي التي طالما دافع وكافح ونافح عنها وتعصب لها طوال حياته، وكذلك فقد شهد ظهور دول الطوائف وتمزق الأندلس.

لقد ذكر المؤرخون وكل من ترجم له انه قد تعرض للامتحان والاختبار ولصنوف مختلفة من البلاء كانت عليه أشد من أن يتحملة إنسان، خاصة بعد أن تبدلت حاله وانقلبت حياته رأساً على عقب، فقد كان أبوه وزيراً في بلاط الملك، وعاش ابن حزم في كنفه وقصوره عيشة أبناء الملوك المترفين في حياة هادئة هائلة ناعمة، حيث المال والخدم والحشم والعلمان والجواري والمعلمين والمؤدبين وكل ما يتمناه المرء كان ابن حزم قد عاشها لمدة معينة⁽⁴⁾.

ولكن وكما يقال دوام الحال من المحال، فإذا كل هذا النعيم والترف يتبدل ويتغير ويحل البؤس والشقاء بذلك الفتى وهو لم يزل في مقتبل عمره البالغ خمسة عشر عاماً، فقال يصف تلك الأيام المريرة وانقلاب الزمان: (وشغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء

(1) جودت هلال، قرطبة في التاريخ الاسلامي، ص 18؛ عبد

الحليم عويس، المرجع السابق، ص 33-29.

(2) صاعد، طبقات الأمم، ص 183؛ ابن خلكان، وفيات

الأعيان، 3/327؛ ابن بشكوال، الصلة، 2/396.

(3) ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ص 5.

(4) عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 54.

انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدث بالجناب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة الى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة وانتقلت أنا بانتقاله، وذلك في جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وثلاثمائة⁽³⁾.

ولكنه ورغم ابتعاده عن الجانب الشرقي المضطرب من المدينة ظناً منه انه سوف يبتعد عن مركز الفوضى والصراع في قرطبة، والذي كان محتدماً بين المهدي الذي استعان بملك قسطنطينية النصراني (ابن أذفونس) وبين المستعين الذي استعان بالبربر، وقد استمرت الحرب بينهما سجالاً، كل منهم يدفع الآخر خارج المدينة (قرطبة) حتى دخلها المستعين ومعه جنود البربر عنوة سنة (403هـ) حيث لم يسلم المديون الآمنون في بيوتهم من الأذى والشر والذي غالباً ما يدفعه الناس ثمناً للصراعات السياسية بين الأطراف المتناحرة في الحرب الأهلية حتى قال المؤرخون: (ولحقت بيوتات قرطبة معرة في نسائهم وأبنائهم)⁽⁴⁾. وقد وصف لنا المؤرخ الأندلسي المقرئ التلمساني وحشيتها وقسوتها فقال: (واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألف وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم)⁽⁵⁾.

وفي خضم تلك الأحداث الجسام والأحوال العظام، حيث لم يعد الأمن والأمان قائماً والسلم والسلام غائباً

أرباب دولته، وامتحنًا بالاعتقال والتغريب والإغرام الفادح والإستنار، وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمّت الناس وخصّتنا، إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله، ونحن في هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين وأربعمائة⁽¹⁾.

إذن نستطيع أن نقول انه تعرّض لمحن عديدة منذ فتوته الى وفاته وهي كالآتي:

- 1 - الإجلاء والتهجير، 2 - الوفيات في أسرته، 3 - السجن، 4 - النفي والتغريب، 5 - الأسر، 6 - إحراق كتبه.

1 - الإجلاء والتهجير

بحلول عام (392هـ) توفي الخليفة المنصور فتولى ابنه المظفر الخلافة، وعهد لأحمد بن سعيد والد ابن حزم أن يكون وزيراً عنده، واستمر بوزارته حتى عام (398هـ)، ثم حدثت الاضطرابات والفتن في قرطبة عندما هاجمها البربر⁽²⁾. فلم يستطع أن يواصل معها حياته السياسية فاعتزل الأمور وترك الوزارة وابتعد عن ساحة السياسة - مثلما سيحدث لولده فيما بعد - فاضطرت الأسرة الى ترك ضاحية الزهراء الراقية في مستواها الاجتماعي والثقافي وعادت الى دارها القديمة في الجانب الغربي من قرطبة وذلك أيام الخليفة محمد المهدي عام (399هـ).

وقد تحدث ابن حزم نفسه عن هذه المحنة فقال: (ثم

(3) طوق الحمامة، ص 154.

(4) المقرئ، المصدر السابق، 1/428.

(5) المقرئ، المصدر نفسه، 1/428.

(1) طوق الحمامة، ص 154.

(2) المقرئ، نفح الطيب، 1/428.

ولأول مرة يغادر ابن حزم قرطبة، مدينته التي أحبها وطالما تغنى بها، فقد ولد فيها ونشأ وترعرع، لكنه لم يستطع البقاء والاقامة فغادرها الى مدينة أخرى تسمى (المرية). وهناك بدأ يعمل كمعارض لنظام الحكم في قرطبة من أجل استعادة العرش الأموي المفقود، وشرع في توحيد الصفوف وتحشيد الإعلام وتبصير الناس بما آل إليه حال إخوانهم في قرطبة، وكيف عاث البربر في البلاد فساداً وإفساداً، ولكن ذلك لم يرق لحاكم مدينة المرية (خيران العامري) فما كان منه إلا أن قبض عليه وألقاه في السجن⁽⁴⁾ - كما سنرى -.

ومن المفيد أن نذكر ان ابن حزم حين غادر قرطبة كان عمره عشرين عاماً، وهذا يعني انه كان في قمة شبابه وأوج قوته وأجمل سنين حياته، قد فرض عليه الدهر أن يخرج منها مكرهاً حزيناً غير مختار.

وهكذا واجه ابن حزم الإجماع والتهجير من مدينة لأخرى، ثم لم يلبث أن نفاه حاكم المرية (خيران) الى خارج بلدته فوجد نفسه مضطراً للتوجه نحو مدينة (بلنسية) وطناً بديلاً ومنفىً جديداً، وهناك التقى بالمرتضى الأموي عام (408هـ)⁽⁵⁾، وبدأ نشاطه السياسي مجدداً يحشد الرأي العام لأهل بلنسية تأييداً للخلافة الأموية التي لم يفتأ مناصراً ومتعصباً ومحباً لها.

والفتن تضرب أطنابها في كل البلاد، وابن حزم معروف بنزعتة الأموية المتصلبة والتي تثير أعدائه فقد أجلى مرة أخرى من داره عام (404هـ) فقال: (ثم ضرب الدهر ضرباته، وأجلىنا عن منازلنا وتغلب علينا جند البربر، فخرجت من قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمئة)⁽¹⁾. ولم يكتف البرابرة بهجومهم على الحي الذي يسكن فيه ابن حزم وتهجيرهم منه فحسب، وإنما استولوا على منازلهم وسكنوا فيها وسرقوا أثاث دورهم وانتهبوها ظلماً وعدواناً فقال: (ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة ونزولهم فيها)⁽²⁾.

لقد كانت تلك الايام من أشد الأيام فتكاً وقهراً وظلماً لما عاناه مجتمع قرطبة بكل شرائحه، حتى هجرها معظم أهلها سواء الإنسان العادي أو العالم والأديب والشاعر والفقيه، وأخذ كل منهم يتحين الفرصة للنجاة بنفسه من هذا البلاء الماحق والفتن المردية. فقد كانت هذه الأيام بشراستها وقسوتها وكما وصفها ابن حيان بأنها: (شداداً نكدات، صعباً مشؤومات، كريهات المبدأ والفايحة، قبيحات المنتهى والخالقة، لم يعدم فيها حيف، ولا فورق فيها خوف، ولا تم فيها سرور، ولا فقد فيها محذور، مع تغير السيرة، وخرق الهيبة، واشتعال الفتنة، واعتلاء المعصية، وظعن الأمن وحلول المخافة)⁽³⁾.

(4) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 162؛ بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، 315؛ عمر فروخ، ابن حزم الكبير، ص 52.

(5) المقري، نفح الطيب، 432 / 1؛ عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 65.

(1) طوق الحمامة، ص 155.

(2) المصدر نفسه، ص 161.

(3) ابن بسام، الذخيرة نقلاً عن ابن حيان، 1 / 25.

المؤرخون المعاصرون فان ابن حزم كتب رسالته المشهورة (طوق الحمامة) وهو في المنفى والغربة، ونراه يختم رسالته وفي آخر صفحة من الكتاب نجده متألماً ومتحسراً على موطنه الأصلي (قرطبة) بكلمات تخرج من صميم قلبه يشكو الى صديقه ألم الفراق ولوعة الوداع وحب الوطن، فقال كلمات حزينة ومؤثرة وبأجل ما يمكن لأديب أو شاعر أن يتغنى بها محبة وولاء لبلده فقال:

(وأنت تعلم أن ذهني متقلب، وبالي مضطرب بما نحن فيه من نبو الديار، والجللاء عن الأوطان، وتغير الإخوان، وفساد الأحوال، وتبدل الأيام، وذهاب الوفرة، والخروج عن الطارف والتالد، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد، والغربة في البلاد، وذهاب المال والجاه، والفكر في صيانة الأهل والولد، واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل، ومدافعة الدهر، وانتظار الأقدار، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه، وأعادنا الى أفضل ما عودنا وان الذي أبقى لأكثر مما أخذ، والذي ترك أعظم مما تحيف، والكل منحه وعطاياه، ولا حكم لنا في أنفسنا ونحن منه واليه منقلبنا، وكل عارية راجعة الى مُعيرها، وله الحمد أولاً وآخرأً وعوداً وبدأً)⁽⁵⁾.

2 - الوفيات في أسرته

كان عام (400هـ) أي مطلع القرن الخامس الهجري عاماً حافلاً بالأزمات والنكبات على ابن حزم وعائلته، ففي بدايته كانت فتنة البربر قد هاجت وماجت. وفي

وطوال تلك السنين بقي ابن حزم مهجراً ولم يتمكن من العودة الى قرطبة إلا سنة (409هـ) بعد غياب دام ست سنوات كانت على شكل سجن أو أسر أو إجلاء أو نفي وتغريب، فقال ابن حزم مؤرخاً لذلك الحال: (خرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمئة، وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام أو أكثر، ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمئة)⁽¹⁾.

وبعد أن تولى الخلافة المعتد بالله عام (418هـ) ثم أطيح به عام (422هـ)⁽²⁾، كان ابن حزم قد أجلي مرة أخرى حيث توترت الأمور ضد الأمويين ونودي في قرطبة بأن لا يبقى بها أحد من بني أمية⁽³⁾.

وهكذا كما رأينا فان أسرة ابن حزم كانت في اضطراب دائم من أمرها لا يستقر لها مقام، ولا يهدأ لها بال، ولا يهدأ لها عيش، وقد صدق على ابن حزم شعره الذي أنشده حين ضاقت به الأرض بما رحبت وأوذى وعودي فوجد من الشعر سلوى يسري بها عن نفسه فقال:

لم تستقر به دارٌ ولا وطنٌ
ولا تدفأ منه قطُّ مضجعه
كأنما صيغَ من رهو السحابِ فلا

تزال الى الآفاق تدفعه⁽⁴⁾

وفي هذه المرحلة الحرجة الصعبة وكما يرجح

(1) (78) طوق الحمامة، ص 155.

(2) (79) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 18 / 186.

(3) (80) الحميدي، جذوة المقتبس، ص 28.

(4) (81) طوق الحمامة، ص 159.

(5) طوق الحمامة، ص 207.

مكانة كبيرة في قلبه وحياته، فهو لم ينسها، وذكرها في كتابه الشهير - طوق الحمامة - لما لها من منزلة وحظوة عنده. فالمعروف عن المجتمع الأندلسي انه كان مجتمع تشيع فيه تجارة الحرير والجواري، وكنَّ على درجات مختلفة من الجمال والثقافة والأدب. فمنهن التي تحفظ الشعر وتنظمه وتجاري سيدها في السجال الشعري. ولطالما افتخروا وتغنوا بهن إذا كن على قدر من النبوغ الشعري، وربما كان ذلك سبباً لارتفاع سعرها في سوق النخاسة⁽³⁾.

وهكذا الحال مع ابن حزم وجاريته (نعم) التي أحبها وأفرط في حبها، وقد وصفها بأرق وأجمل ما يصف به حبيب لمحبوبته، وهو حزين عليها أشد الحزن، منكسر الفؤاد ومهموم الحال، وكانت قد ماتت وهي في ريعان شبابها، فأصابتها بهزة عنيفة وبفاجعة كبيرة أخرى أَلَّت به بعد وفاة والده وأخيه فجعلته إنساناً غريباً وشخصاً عجباً في تلقيه المصائب والنكبات والأزمات، فمصيبة بعد مصيبة ونكبة بعد نكبة لم ير فيها فسحة ولو قصيرة يرى فيها الراحة والسكينة وهدوء البال.

ولنستمع الى ابن حزم وهو يحدثنا عن موت جاريته (نعم) ويصف لنا حاله وحالها، وكيف أصبحت الدنيا بعد موتها مظلمة لا معنى لها ولا قيمة فقال: (ودعني أخبرك أي أحد من دُهي بهذه الفادحة، وتعجّلت له هذه المصيبة، وذلك أني كنت أشد الناس كَلَفاً وأعظمهم حباً بجارية لي، كانت فيما خلا اسمها نُعم، وكانت أُمينة

بداية القرن الجديد أيضاً (401هـ) توفي الشقيق الأكبر لابن حزم ويدعى (أبو بكر) الذي يبلغ من العمر اثنان وعشرون عاماً، وقد مات بالطاعون الذي ضرب قرطبة ذلك العام⁽¹⁾ ليزيد من بلاء الناس، فشرارة الحرب الأهلية كانت قد انطلقت ومعها بدأ الطاعون يفتك بأهل قرطبة.

وبعد عام أو أقل تلقى ابن حزم ضربة أخرى في صميمه وذلك عندما توفي والده الوزير (أحمد بن سعيد) عام (402هـ)، وكان رجلاً فاضلاً ومن أهل العلم والأدب والخير والبلاغة⁽²⁾. فضلاً عن كونه من كبراء أهل قرطبة في علمه وخلقه ومنصبه. وبالتأكيد فان ابن حزم قد تأثر لموته كثيراً، فهو والده أولاً ثم أسوته وقدوته في العلم والحياة، وكانت له مجالس علمية تدور في قصره ينتفع منها أيما انتفاع، وظهر تأثير ذلك على مؤلفات ابن حزم خاصة في اللغة والشعر والبلاغة. ومن العسير على الإنسان أن يفقد شخصاً من عائلته، فكيف به وقد فقد اثنان كانا له سنداً وعوناً وذخراً في كل ما يلاقيه في حياته المليئة بالأزمات والنكبات.

واذا أضفنا شخصاً ثالثاً كان قد فقده ابن حزم رغم انه لم يكن من صلب أسرته، ولكنه عايش آلامه وتابع حياته وكان له دور كبير فيها، تلك هي جاريته (نعم) التي كانت تقوم على خدمته وراحته، وكانت لها

(1) المصدر نفسه، ص 160.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/326.

(3) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص 155.

3 - السجن

لقد اشتغل ابن حزم بالسياسة وهو في ريعان شبابه بعد أن بلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، وكان قد ورثها من أبيه الوزير (أحمد بن سعيد) الذي كان وزيراً للمنصور العامري، ثم لولده من بعده الملقب بـ(المظفر).

وبعد وفاة والده دخل ابن حزم المعتزك السياسي الذي كان شائكاً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، حيث الاضطرابات والصراعات والانقلابات العسكرية قد عمّت قرطبة جميعها. إذن كان من الطبيعي أن يضع في حسابه أنه سوف يتعرض لألوان من المصاعب والمتاعب بما فيها السجن. فبعد خروجه من قرطبة عام 404هـ متوجهاً إلى المريّة ظناً منه أنه سيكون بمكان أفضل وملاذ آمن وسيتاح له العمل السياسي هناك، لكنه اصطدم بحاكم المريّة (خيران العامري) الذي منعه وصدّه عن إكمال ومتابعة نشاطه السياسي في الدعوة للخلافة الأموية، ورماه في السجن لشهور عديدة⁽⁵⁾.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها ابن حزم السجن، وقد وصف لنا حاله وهو مسجون فقال: (وفي أثر ذلك نكبني خيران صاحب المريّة، إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين، وقد انتقم الله منهم عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي، أنا نسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية فاعتقلنا عند نفسه أشهراً)⁽⁶⁾. ومن الملاحظ هنا وعلى ما نراه راجحاً أنه كان يسعى

المتمني وغاية الحُسن خلقاً وخُلُقاً وموافقة لي، وكنا قد تكافأنا المودّة، ففجعتني بها الأقدار، واخترقتها الليالي ومُرُّ النهار، وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسنّي حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن، فقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا تفتر لي دمة - على جهود عيني وقلة إسعادها⁽¹⁾ - وعلى ذلك فو الله ما سلوت حتى الآن! ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف⁽²⁾، وبيعض أجزاء جسمي العزيزة عليّ مسارعاً طائعاً، وما طاب لي عيش بعدها، ولا نسيت ذكرها، ولا أنست بسواها، ولقد عفى حبي لها عن كل ما قبله، وحرّم ما كان بعده⁽³⁾. وكان مما قاله فيها:

مهذبةً بيضاء كالشمس إن بدت

وسائرُ ربّاتِ الجمالِ نجومٌ

أطارَ هواها القلبَ عن مستقره

فبعد وقوع ظلّ وهو نجومٌ⁽⁴⁾

(1) يقصد أن عينيه كانت لا تدمع ويسمى صاحب هكذا حالة (عصي الدمع أو جحود العين)، وقد اعترف ابن حزم صراحة بذلك في طوق الحمامة فقال يصف المحبين: (فمنهم غزير الدمع تحببه عينه وتحضره عبرته إذا شاء، ومنهم جحود العين عديم الدمع وأنا منهم). وكان تلك الحالة تلازمه بسبب أكله الكندر وهو نبات من الفصيلة البخورية يفرز صمغاً يأكله ويمضغه مثل اللبان - العلكة - كان الأطباء قد وصفوه له كعلاج لخفقان القلب الذي أصابه عندما كان صغيراً.

(2) التالد: القديم، والطارف الحديث.

(3) طوق الحمامة، ص 130.

(4) المصدر نفسه، ص 130.

(5) المقري، نفح الطيب، 1/428.

(6) طوق الحمامة، ص 162.

قد انتزوا بهذا الخاسر على المستظهر فقتله واستولى على الأمر واعتقلنا حيث ذكرنا⁽⁴⁾.

4 - النفي والتغريب

بعد أن سجن ابن حزم لشهور عديدة من قبل خيران حاكم المرية، لم يلبث هذا الحاكم الجائر أن يعاقبه بعقوبة أشد وهي النفي والتغريب عن بلده. فأخرجه من السجن ونفاه الى مكان بعيد يدعى (حصن القصر)، ولكن الله تعالى أبدله مستقراً طيباً خيراً من المرية، وهياً له حاكماً رحيماً مضيافاً مرحباً به، وأحاطه بعامة من الناس كانوا على درجة رفيعة من الكرم والخلق والهمة، فكان حصن القصر منطلقاً جديداً له في دعوته، فقال يصف منفاه: (ثم أخرجنا على جهة التغريب فصرنا الى حصن القصر، ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبي المعروف بابن المقفل فأقمنا عنده شهوراً في خير دار إقامة وبين خير أهل وجيران وعند أجل الناس همّة وأتمهم سيادة، ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية)⁽⁵⁾. وهناك اتصل بعبد الرحمن بن محمد الملقب (بالمترضى) الذي تولى الخلافة فيما بعد وعملاً سوية على تكوين جبهة سياسية وعسكرية معارضة ضد نظام الحكم في قرطبة - كما سنرى -.

محمد بن عبد الرحمن الناصري في شهر ذي القعدة من العام نفسه وقتله، وبويع بالخلافة وتلقب بالمستكفي، وقد سجن ابن حزم وابن عمه أبا المغيرة وأقام في الخلافة ستة عشر شهراً ثم آل أمر قرطبة الى بني حمود وفر المستكفي الى ناحية الثغر ومات هناك.

(4) رسائل ابن حزم، 4/346.

(5) طوق الحمامة، ص 162.

فعلاً على القيام بالترويج للدولة الأموية، بدليل انه لم ينفِ تهمة خيران له ولم يستنكرها، وإنما استنكر سعي الباغيين به لدى خيران، وكذلك تعصبه المعروف لبني أمية ليؤكد انه كان فعلاً يسعى بتلك الدعوة السياسية. أما المرة الثانية لدخوله السجن فكانت عام (414هـ) وبعد أن تولى الوزارة لصديقه الخليفة عبد الرحمن المستظهر بالله في نفس العام، لكنه لم يبق في هذا المنصب أكثر من شهر ونصف، وذلك بسبب الانقلاب الذي قاده المستكفي بالله محمد بن عبيد الله بن أمير المؤمنين بن ناصر لدين الله والذي أدى الى مقتل المستظهر في العام نفسه، وكان من نتيجته دخوله السجن باعتباره أحد أركان الدولة، وسجن معه ابن عمه المغيرة⁽¹⁾.

ولا نعلم هذه المرة كم هي المدة التي قضاه في السجن؟ فقال يحكي عن نفسه: (وأحدثك في ذلك بما نرجو أن ينتفع به قارئه إن شاء الله تعالى، وذلك إني كنت معتقلاً في يد الملقب بالمستكفي وهو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن ناصر في مطبق⁽²⁾، وكنت لا آمن قتله لأنه كان سلطاناً جائراً ظالماً عادياً قليل الدين كثير الجهل، غير مأمون ولا متثبت، وكان ذنبنا عنده صحبتنا للمستظهر⁽³⁾ رضي الله عنه، وكان العيَّارون

(1) المقرئ، المصدر السابق، 1/432؛ الحميدي، جذوة المقتبس، ص 24.

(2) المطبق: السجن.

(3) بويع المستظهر وهو عبد الرحمن بن عبد الجبار في رمضان سنة 414هـ فاستوزر ابن حزم وابن شهيد، ثم ثار عليه

5 - الأسر

يطمح إليه المرتضى ووزيره ابن حزم فقد كانت لابن

حمود قوة حيلة وحسن تدبير.

وكان ابن حزم قد سار في جيش المرتضى مقاتلاً
لحرب ابن حمود، وقد اصطدم الفريقان وانهزم جيش
المرتضى في موقعة غرناطة. وقد اغتيل المرتضى قبل
أن تبدأ المعركة، ووقع ابن حزم في يد أعدائه أسيراً،
وبقي في الأسر مدة لم يذكر عدتها المؤرخون، ثم فك
إساره أمير صنهاجة ابن زيري فيما بعد، ولجأ إلى مدينة
شاطبة⁽³⁾ لبدأ من هناك رحلة عناء جديدة لا يعرف
كيف ستؤول أموره؟
6 - إحراق كتبه:

بدأ ابن حزم حياته العلمية باتباعه وتقليده المذهب
المالكي الذي كان سائداً في الأندلس، وفوق هذا كان
المذهب الرسمي للدولة آنذاك⁽⁴⁾، ثم انتقل منه إلى
المذهب الشافعي، ثم عكف على دراسة علوم كثيرة
لا سيما الفقه والحديث والأصول حتى استطاع أن
يُنَظِّر ويقول رأيه بكل جرأة وصراحة لأنه قد بلغ رتبة
الاجتهاد في الدين، وشهد له بذلك عدة أئمة ولم يسغ له
أن يقلد مذهب معين⁽⁵⁾. ثم بدا له الانتقال إلى مذهب
أهل الظاهر وصار من أتباع داود بن علي إمام ومؤسس

بعد أن وصل ابن حزم إلى بلنسية وعمل مع عبد
الرحمن بن محمد بن عبد الملك ابن الناصر الملقب
بالمُرتضى سنة (408هـ) ودعا إلى نفسه بالخلافة، وكان
من الطبيعي أن يؤيده ويشجعه ابن حزم على ذلك.
وفي تلك الأثناء وخلال فترة سيطرة علي بن حمود
العلوي على قرطبة، فإن خيران العامري حاكم المريّة كان
قد أوجس خيفةً من ابن حمود مما دفعه إلى أن يتصرف
تصرفاً غريباً، فسعى سرّاً ليعيد الأمر إلى الأمويين، ونجح
في هذا المسعى فعلاً عندما نقل إلى المرتضى الأموي أن
علي بن حمود يريد قتله، علماً أن عبد الرحمن (المرتضى)
كان قد خرج من قرطبة مستخفياً ونزل مدينة (جيان)
وقد أصلح من حال بني أمية وسعى في جمعهم على كلمةٍ
سواء من أجل إعادة ترتيب البيت الأموي من جديد،
وقد عاونه في ذلك المسعى ابن حزم لما هو معروف عنه
بشدة ولائه وتعصبه لبني أمية⁽¹⁾.

وهنا لا بد من الإشارة إلى ابن حزم كان خلال هذه
المدة وزيراً من وزراء المرتضى وهي الوزارة الأولى له
في حياته السياسية. ويرجح الدكتور عبد الحليم عويس
أن ابن حزم كان مستشاراً كبيراً للمرتضى وليس وزيراً
ويستشهد بكلام العلامة محمد أبو زهرة: (بأن ابن حزم
لم يعرف عنه أنه تقلد منصباً لا قضائياً ولا علمياً ولا
وزارياً)⁽²⁾، وعلى أية حال فإن الأمور لم تجر كما كان

زهرة، ابن حزم الفقيه الذي عالج الحب، مقال منشور في
مجلة العربي الكويتية، العدد (57).

(3) بالنشأ، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 214؛ عبد الكريم
خليفة، ابن حزم حياته وأدبه، ص 54.

(4) الناصري، الاستقصاء لدول المغرب الأقصى، 2/50؛

بروفنسال، الحضارة العربية في إسبانيا، ص 153.

(5) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 18/188.

(1) المقرئ، نفح الطيب، 1/432.

(2) عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 63؛ محمد أبو

المذهب الظاهري، فتقحه ونهجه وجادل عنه ووضع الكتب في بسطه وثبت عليه الى أن مات⁽¹⁾.

ومن هنا بدأت نقطة الخلافات وظهور العداوات بينه وبين فقهاء المذاهب الأخرى، وذلك لأنه خالف مذهبهم المشهور (المالكي) بما ظهر له من الحق في اجتهاده فكانوا يرون ذلك خروجاً عن الشائع والمألوف، لأن مذهب مالك كان له صيته الواسع في كل أرجاء الأندلس على عكس المذاهب الأخرى. وقد عبر عن هذه الخصيصة المستشرق بروفنسال بأن اسبانيا اشتهرت بأنها من أقوى حصون المذهب المالكي.. ومن ثم يصح أن نطلق عليها اسم «مالكية الأندلس»⁽²⁾.

وفضلاً عن كل ذلك فقد دخل ابن حزم في مناظرات كثيرة جداً مع الفقهاء والعلماء، وكان يصر على موقفه ويتشدد فيه ويثبت ولا ينهزم. وإذا ما فكر عالم أو فقيه في مناظرتة ومجادلته فعليه أن يتحمل تبعه لقائه به لأن أكثر الذين جادلوه وجدوا فيه غلظة وصلابة.

أما إذا خرج النقاش عن إطاره العلمي واستفزه المقابل، فإن ابن حزم لا يتردد في إطلاق لسانه وقلمه على كل من يحاول أن ينال منه مهما كان اسم أو منصب أو سمعة ذلك الشخص المناظر في المجتمع الأندلسي. ولهذا السبب قال فيه ابن العريف الأندلسي قولته المشهورة: (إن لسان ابن حزم وسيف الحجاج

شقيقان)⁽³⁾.

نسوق هذا الكلام وفي جعبتنا كلام طويل ووصف دقيق لمعاصره وخصمه المؤرخ المعروف مروان بن حيان، فقال يصف حالة ابن حزم وفي الوقت عينه مشخصاً أخطاءه: (كان يحمل علمه ويجادل من خالفه فيه على استرسال في طباعه وبذل بأسراره، فلم يك يلفظ صدغه بما عنده من تعريض، ولا يرقه بتدريج، بل يصك به معارضة صك الجندل.. حتى كمل من مصنفاة في فنون العلم وقر بعير، وأحرق بعضها بأشيلية ومزقت علانية لا يزيد مؤلفها في ذلك إلا بصيرة في نشرها)⁽⁴⁾.

وكان السبب في إحراق كتبه هم الفقهاء الصغار الذين يأكلون على موائد السلاطين فيبيعون دينهم بدنياههم، وقد وضح ابن حيان حال هؤلاء الفقهاء وافترأهم وتحاملهم على ابن حزم فقال: (فألبوا عليه الأمراء وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا العامة من الدنو إليه والأخذ عنه، وطفق الملوك يقصونه عن قريهم ويسيرونه عن بلادهم وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع إلى ما أرادوا به)⁽⁵⁾.

وهنا لا بد أن نشير الى أن ابن حزم ظل متنقلاً بين المدن بعد أن تمزقت الدولة وانقسمت الى دويلات، فقام برحلات عديدة ينشر علمه وفكره وكتبه على

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 18/199.

(4) ياقوت الحموي، معجم الأدبا، 12/48.

(5) المصدر نفسه، 12/48.

(1) ابن سعيد المغربي، المغرب، 1/354.

(2) الحضارة العربية في اسبانيا، ص 153.

أحمالها، ثم حلَّ في أشبيلية عندما كان يحكمها المعتضد بن عباد عام (439هـ).

والمعتضد هذا هو الذي تولى كبر إحراق كتب ابن حزم، فأنزل به أشد عقوبة نفسية تنزل بالعالم العظيم، ولكن الذي خففها إنها نزلت بابن حزم وقد مرسته التجارب وعرك الدهر حلوه ومره وشرب من الكأسين، وأحسَّ بأنه في مستوى لا تناله الآلام مهما تكن حدتها ولا صنوف الأذى مهما تكن قسوتها⁽¹⁾.

ولا شك فإن السبب الظاهر لإحراق كتبه هو تأليب الفقهاء عليه وتحريضهم الأمراء وشكواهم من انه يهاجم الأئمة الأربعة وعلى رأسهم مالك، ويخرج على الناس بمذهب جديد وفقه جديد لا يمت للمذاهب الأربعة بأي صلة لا من قريب ولا من بعيد⁽²⁾، فما كان من هذا الحاكم الجاهل والظالم إلا الإذعان لهؤلاء الشراذم ممن يسمون أنفسهم بالفقهاء، ولكنهم لا يستحقون أكثر من لقب (وعاظ السلاطين) الذين تسلطوا على رقاب الناس في غفلة من الزمن وتلقبوا بأسماء وألقاب خلفاء بني العباس الأوائل والتوالي من عظمائهم كالمعتصم والمعتضد والمقتدر وغيرها، كي يلمّعوا صورتهم في عيون شعوبهم ولكن هيهات! ولعل أصدق ما قاله أحد شعراء الأندلس فيهم:

مما يُزهدني في أرضِ أندلسٍ
أسماءُ معتضدٍ فيها ومعتضدٍ

ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها
كأهرٍ يحكي انتفاخاً صورة الأسد⁽³⁾

ويرى الشيخ العلامة محمد أبو زهرة - رحمه الله - ان لإحراق كتبه أسباباً أخرى، وليس فقط هم الفقهاء، بل ربما كانت هناك أسباب شخصية تتمثل في رغبة المعتضد بن عباد الانتقام لنفسه ولشخصه (4) (110). فقد كان بإمكانه أن يخرج به ويبعده عن حدود مملكته بأشبيلية وينتهي الأمر، ولكنه بالغ في ذلك وأحرق كتبه أمام عينيه كي يشعر بلذة الانتقام ويقتص منه أشد القصاص ألا وهو العذاب النفسي والمعنوي بمصادرة كتبه، والتي هي بكل تأكيد قطعة من جسده إن لم تكن أعلى وأعز عليه من أولاده، ثم تمزق وتصير رماداً وهباءً مشوراً بدل أن تكون مصادر ومناهل لطلاب العلم والباحثين ولعمري فإن هذا ظلم ما بعده ظلم!!

ولأن الأمم تفتخر وتباهى بوجود عالم مميّز في فرع واحد من فروع المعرفة الانسانية، فكيف بعالم - كابن حزم - قد حوى وجمع علوم ومعارف كثيرة في شخصه. والأدهى من ذلك أن الدولة تحاربه وتعاديه وتمزق كتبه علانية وتلقيها في النار بعد أن حرّضت عليه العامة والخاصة وكأنه إنسان خارج عن الملة. وفي هذا

(3) المراكشي، المعجب، 59/1؛ ابن خلدون، التاريخ،

1/285.

(4) ابن حزم حياته وعصره، ص 55.

(1) محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره، ص 53.

(2) المرجع نفسه، ص 55؛ زكريا ابراهيم، ابن حزم الأندلسي، ص 46.

كانت لتجتمع على غير خليفة فصنع ما صنع! واستمر هذا الادعاء الى سنة (455هـ) فادعى موته وانه عهد الى المعتضد هذا⁽³⁾.

والذي يبدو لي من هذه الحادثة الغريبة إن الأمير أراد أن يثبت ملكه بشيء من الشرعية لأن هشام المؤيد والذي كان صغيراً بالسن مات منذ اثنان وعشرون عاماً، وكان هو الخليفة الشرعي رغم صغر سنه، فأراد المعتضد أن يصبغ ولايته بشرعية لا جدال فيها، وهذا بلا شك استخفاف بعقول الناس مع التهديد باستخدام الحديد والنار، وهكذا هو حال الطغاة الجبارين في كل زمان ومكان. ولكن ابن حزم لم يكن ليدع هذه المهزلة تمر مرور الكرام دون أن يبين للناس إن هذا هو عين الاستهزاء والاستخفاف بعقولهم، فقال كلمته مدويةً وصريحةً وهذا هو طبعه الذي جُبِلَ عليه، يقول كلمة الحق ولا يخشى في الله لومة لائم، ولو كان ذلك الإنسان هو الأمير نفسه فقال: (أُخلوكة لم يقع مثلها في الدهر، فانه ظهر رجل حصري بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المؤيد وادعى انه هو، فبويع له وخطب له على جميع منابر الأندلس في أوقات شتى وسفكت الدماء وتصادمت الجيوش في أمره)⁽⁴⁾.

وهكذا فان ابن حزم لم يكن ليسكت على هذه المهزلة، وانبرى لفضح مؤلفها ومختلقها الأمير المعتضد وسماها (أُخلوكة) تحقيراً وإنكاراً لمن قالها وأجبر شعبه على

السياق لا بد أن نذكر قول شيخ مؤرخي الأندلس ابن خلدون بأنه كان من نتائج هذا التحريض: (بأن نقم الناس عليه وأوسعوا مذهبه استهجاناً وإنكاراً وتلقوا كتبه بالإغفال والترك حتى انها ليُحَضَّرَ بيعها بالأسواق وربما تمزق في بعض الأحيان)⁽¹⁾.

وهناك ملاحظة مهمة واستنتاج لطيف للشيخ أبو زهرة في تحليل موقف المعتضد بن عباد من معاقبته لابن حزم بهذه الطريقة القاسية، وهي ان المعتضد هذا كان قد ورث الحكم من أبيه على مدينة اشبيلية، فبدأ بداية جيدة في حكمه كسيرة والده في الإصلاح وحسن التدبير وبسط العدل، لكنه استبد بالأمور فيما بعد فأصبح عنيفاً صارماً حديد القلب لا تقف في سبيل غاياته عاطفة إنسانية مهما قربت حتى انه على استعداد أن يقتل ابنه إذا علم أنه يتآمر عليه⁽²⁾.

وقد ذكر المؤرخون ومنهم المقرئ التلمساني حادثة غريبة، فقالوا عن المعتضد انه في سبيل تسلطه على الشعب ادعى انه استمد الولاية من هشام بن الحكم المؤيد الذي مات منذ سنين عديدة وقال انه حي يرزق ولم يموت، ويقال ان الذي ادعى هذه الدعوى أبوه من قبله لأن الشعب في اشبيلية ما كان ليرضى أن يعيش من غير خليفة، ولكي يسهل على القاضي أبيه أن يبسط حكمه، بَسَطَه باسم ذلك الخليفة الموهوم على كل البقاع الأندلسية التي تقطعت أوصالها ولا بد من جمعها، وما

(3) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 69.

(4) ابن حزم، نقط العروس، ص 83.

(1) مقدمة ابن خلدون، ص 471.

(2) ابن حزم حياته وعصره، ص 55.

تصديقها والعمل بمقتضاها. ومن هنا نعلم أن المعتضد ربما كان قد امتعض من ابن حزم وحقد عليه لأنه فتح آذان الناس وزاد من وعيهم في عدم تصديق تلك المهزلة. وقد أسرها المعتضد في نفسه وأضمر الضغينة لابن حزم وقد جائته الفرصة مواتية في وقت تواجد ابن حزم في اشبيلية، فمزق كتبه أمام عينيه وأحرقها وكاد ابن حزم أن يُحرق معها لولا هروبه من اشبيلية.

وفضلاً عن ذلك فإن أموية ابن حزم وتعصبه لهم ووزارته لهم ودفاعه عنهم كانت أيضاً سبباً مهماً في الانتقام منه وإحراق كتبه، وبلا شك فقد كانت تلك الحادثة (إحراق الكتب) قد ألهبت حماسة وشاعرية ابن حزم وزادت من عناده وتمسكه بمنهجه، فشنَّ على أعدائه حرباً لا هوادة فيها لاسيما حاكم اشبيلية المعتضد بن عباد الذي قال في حقه شعراً لا ذعاً هاجياً لم يزل يتكرر في آذان الأجيال:

دعوني من إحراق رَقٍّ وكاغِدٍ

وقولوا بعلٍ كي يرى الناس من يدري

وإلاّ فعودوا للمكاتب بدأة

فكم دون ما تبغون لله من سترٍ

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي

تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسيرُ معي حيث استقلت ركائبي

وينزل إذ أنزل ويُدفن في قبري⁽¹⁾

إذن فهو يتحدى خصومه بالعلم والحجة الدامغة

والدلالة القاطعة ويتمسك بها، ثم يترك الحكم للمجتمع فليس الانتصار بالقوة هو السبيل الأمثل لدحض الحجة وإفحام الخصوم، إنما دعا خصومه أن يأتوا بدليلهم وبرهانهم (وقولوا بعلٍ كي يرى الناس من يدري). وكذلك فإن مصادرة أفكاره بالإكراه وقوة السلطان ما كانت لتتفع لأنهم أحرقوا أوراق هي في صدره محفوظة مكنونة، والتي هي أشبه ما تكون بذاكرة حاسوب كبيرة وليس لديهم سلطان على محوها أو تحريقها، وهنا تكمن عظمة هذا الرجل بصبره وجلده على ظلم مجتمعه له.

ومن اللافت للنظر وبعد قرنين من وفاة ابن حزم تحدث المفارقة العجيبة فنرى كتب ابن حزم التي أحرقت في القرن الخامس الهجري، ولكن بعد أن تصاعد نجمه وسطع في ظل دولة الموحدين والمرابطين بالأندلس في القرن السابع فقد أحرقت كتب الإمام مالك. وهكذا نرى إن كتب ابن حزم نُشرت بعد أن طويت، وذاعت بعد أن حُجبت مؤكدةً أن الحرق لم يكن علاجاً بل ضرراً⁽²⁾.

وقد أجاد العلامة الأستاذ أبو زهرة في وصفه لتلك الحالة عندما قال: (أحرقت كتب المالكية كما أحرقت في عهد ابن حزم كتب الظاهرية، وما كان للأولى مبرر وما كانت الثانية سائغة ولا مقبولة)⁽³⁾.

(2) حسان محمد، ابن حزم منهجه وفكره التربوي، ص 30.

(3) ابن حزم حياته وعصره، ص 520.

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدبا، 12/ 252.

المبحث الرابع ثقافته ومعالم ظاهريته

طلب ابن حزم العلم وهو صغير، ومنذ نعومة أظفاره وكما مر معنا سابقاً في نشأته انه بدأ حياته العلمية في قصر والده الوزير بين الحريم والجواري. فتعلّم منهن القرآن والشعر والخط واللغة وغيرها من الفنون. ثم انتقل به والده الى الشيخ أبي الحسن بن علي الفاسي وكان من أجلّ مشايخ قرطبة، وكان له مجلس علم فأخذه اليه والده لينتفع به من علوم الشريعة⁽¹⁾. وذلك بعد أن بدأ بدراسة الحديث وروايته، فجلس الى المحدث أحمد بن الجسور (ت: 401هـ) وروى عنه الحديث وكان له من العمر ستة عشر عاماً. وكذلك فقد روى عن الهمداني الذي كانت له حلقة علم في مسجد القمري بالجانب الغربي من قرطبة عام (401هـ)⁽²⁾.

وفي هذه الحقبة الزمنية وهو في مقتبل عمره بدأ يتعلم الشعر وينظمه ويقول بهديه كي يتمرس فيه ويتقوى باللغة العربية وفنون الشعر. فقد نظم قصيدة في صباه في المسجد الجامع بقرطبة الذي لم يكن مكاناً للعبادة فحسب بل هو ساحة علمية لكل من له مهارة وإبداع في كل علم من العلوم أن يلقيها على شيخ أو على مجمع من الناس. وكان ابن حزم قد نظم هذه القصيدة على سبيل المزاح والتفكّه من صديق له قد هجره، وقد أظهر ابن حزم براعةً شعرية جميلة وفريدة وممتعة وذلك بأن

نظم صدر القصيده من أفكاره وجعل العجز من معلّقة الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد فقال: (ولقد عرض لي في أيام الصبا هجر مع بعض من كنت ألف.. قلت على سبيل المزاح شعراً بديهاً ختمت كل بيت منه بقسم من قصيدة طرفة بن العبد المعلقة)⁽³⁾.

تذكرتُ ودّاً للحبيب كأنه
لخولة أطلال بُرقةٍ تهمد
وعهدي بعهدٍ كأن لي من ثابتٍ
يلوحُ كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقفْتُ بها لا موقناً برجوعه
ولا آيساً أبكي وأبكي الى الغد
الى أن طال الناس عذلي وأكثروا
يقولون لا تهلك أسى وتجلد⁽⁴⁾
وأفاد أيضاً من اطلاعه الشخصي والقراءة في مئات الكتب التي قرأها فضلاً عن الرحلات العلمية التي قام بها لعدد من مدن الأندلس كالمريّة وبلنسية وسرقسطة وغيرها كما يقول ابن بشكوال أنه تجول بالأندلس⁽⁵⁾. وكانت عينيه تنرو الى بغداد للتزود من العلم والمعرفة على عادة أهل الأندلس في الذهاب الى المشرق لينهلوا من جامعاتها ومعاهدها العلمية المنتشرة في كل العراق، ولكن الفرصة لم تتح له وبقيت زيارة بغداد أمنية حبيسة في قلبه فأنشد:

(3) المصدر نفسه، ص 105.

(4) المصدر نفسه، ص 105.

(5) الصلة، 605 / 3.

(1) طوق الحمامة، ص 173.

(2) المصدر نفسه، ص 184.

ولي نحو أكناف العراق صباةً

ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب

فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم

فحينئذ يبدو التأسف والكرب

هنالك تدري أن للبعد غصةً

وإن كساد العلم آفته القرب⁽¹⁾

وهكذا فان ابن حزم لم يترك سبيلاً وطريقاً للعلم إلا

سلكه، لأنه يعلم ان طريق العلم والهداية ونور البصيرة

لن يناله إلا إذا جدّ في طلبه وواصل فيه بياض النهار

بسواد الليل في غير ملل ولا كلل، وهذا العناء هو الذي

دفع العلماء - ومنهم ابن حزم - الى الرحلة من بلد بعيد

الى بلد بعيد آخر طالباً للعلم محباً له ومؤمناً به حتى قيل

عنه انه كان جامعةً متنقلة ومكتبة زاخرة لكثرة وتنوع

العلوم والفنون التي اكتسبها. وصدق عليه قول الإمام

فيلسوف الإسلام أبو حامد الغزالي حين قال: (وجدت

كتاباً لابن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه)⁽²⁾.

وقد روى أكثر المؤرخين ان ابن حزم أول ما تفقه

على المذهب الشافعي وأقام على ذلك زماناً، وكان

يناضل الفقهاء عن مذهبه رغم انه لم يكن المذهب

الشائع في الأندلس. فقد كان مذهب مالك هو السائد

بها وهو المذهب الرسمي للدولة. فقد ذكر ابن حزم ان

مذهبين انتشرا بقوة السلطان، مذهب أبي حنيفة بالمشرق

ومذهب مالك بالمغرب. وليس هناك من أدلة تثبت

سبب انتقاله وتحوله من المذهب المالكي الى الشافعي،

ولكن على الأرجح انه لا يريد أن يتقيد بمذهب

ويتمسك به، بل انه وبعد رحلة طويلة من الدراسة

والتبحر في العلوم الشرعية والفكرية والفلسفية قد

جعلت منه رجلاً عالماً وفيلسوفاً كبيراً، لا سيما بعد تركه

السياسة وصخبها، فقد ترك السلطة راغباً عنها زاهداً

فيها، وأقبل على العلم ناهلاً منه وموغلاً فيه⁽³⁾.

فأثناء ذهابه الى بلنسية بعد أن نفاه خيران العامري

وأخرجه من المريّة، فقد وجد فيها العلماء والفقهاء

والتقى بهم وتذاكر معهم وأفاد منهم كثيراً فقال:

(ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين

عبد الرحمن بن محمد وساكناه بها)⁽⁴⁾، وذكر انه ساكن

الأمير وكانت عنده مساحة واسعة جداً من الحرية سواء

في التعليم أو إبداء الرأي وكان ذلك عام (407هـ).

وقد روى الذهبي عن بعض معاصري ابن حزم

قولهم: (بينما نحن ببلنسية ندرس المذهب - المالكي -

اذا بأبي محمد بن حزم يسمعنا ويتعجب، ثم سأل

الحاضرين عن شيء من الفقه أُجيب عنه فأعرض فيه،

فقال له بعض الحاضرين: هذا ليس من متحلاتك!

فقام وقعد ودخل منزله فعكف ووكف منه وابل، فما

كفّ وما كان بعد أشهر حتى قصدنا الى ذلك الموضع

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، ص 491؛ ابن بسام، الذخيرة،

1/145؛ ياقوت الحموي، معجم الأدبا، 12/245.

(2) الذهبي، العبر، 3/241؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات

الذهب، 5/240.

(3) ابن بسام، الذخيرة، 1/167؛ عمر فروخ، ابن حزم الكبير،

ص 55.

(4) طوق الحمامة، ص 110.

فناظر أحسن مناظرة قال فيها: أنا أتبع الحق ولا أتقيد بمذهب⁽¹⁾.

وهكذا فقد اعتكف في منزله أشهراً بين المصادر، وقد أجهد نفسه بالقراءة والنظر وجمع الأدلة والنصوص من بطون الكتب كي يرد على خصومه بما بداله من الحق في تلك الحجج، وذلك بنقد التقليد واتباع الآثار التي فيها نصوص من أقوال الصحابة وكبار التابعين، واستطاع أن يناظر ويتذاكر مع كبار علماء وفقهاء بلنسية آنذاك.

وبعد حقبة من الزمن عدل في الآخر الى قول أصحاب الظاهر على مذهب داود بن علي ومن اتبعه من فقهاء الأمصار فنقحه ونهجه وجادل عنه ووضع الكتب في بسطه وثبت عليه الى أن أمضى لسبيله رحمه الله⁽²⁾. وقد صرح ابن حزم بمذهبه في معظم مؤلفاته على اختلاف مواضعها، فهو يذم التقليد ويأخذ أرجح الأقوال القريبة من الكتاب والسنة والاجماع، ووثق ذلك في شعره قائلاً:

ألم ترَ أي ظاهريّ وأني

على ما أرى حتى يقوم دليل⁽³⁾

وقال في موضع آخر:

وإني مولعٌ بالنصٍ لستُ الى

سواه أنحو ولا في نصره أهنُ

لا أنشي نحو آراءٍ يُقال بها

في الدين حسبي القرآن والسُننُ

إذاً مما تقدم نستطيع أن نقول نشأ ابن حزم شافعيّاً ثم تحول الى القول بالظاهر ونصر ذلك وجادل عنه فأوذي وعودي، وكان الباعث على هذا التحول هو غلبة التملق على فقهاء عصره للسلطين وأمراء الطوائف فنقص ذلك من دينهم وتحيف من علمهم فاسترسلوا في الفتوى الجائرة التي تعين على ظلم فتنصر حاكماً وتؤيد مُستهتراً⁽⁴⁾.

ويؤيد هذا الاتجاه الأستاذ عبد الحليم عويس عندما قال: (لقد اختار ابن حزم الظاهرية بتأثير ظروف فكرية وتاريخية أوجبت لديه ذلك، ففي هذا العصر الذي ساد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية أصبح الفقهاء أكبر عضد لأمرأ الطوائف في تبرير طغيانهم وظلمهم وانحرافهم ابتزازاً لأموالهم وسعيّاً وراء المناصب عندهم)⁽⁵⁾.

وكان استدلال بعض المؤرخين لنقد أولئك الفقهاء بأنهم أفتوا بجواز ولاية عبد الرحمن شنجول وأذاعوا حديثاً نسبوه الى الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا فيه: (لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه، وكان عبد الرحمن قحطانيا)⁽⁶⁾. ولمثل

(4) المراكشي، المغرب في تاريخ المغرب، 61 / 3؛ ابن الأبار، الحلة السيرة، 270 / 1.

(5) ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ص 77؛ أنور الجندي، نوابع الفكر الاسلامي، ص 230.

(6) عنان، ابن حزم الفيلسوف الذي أرخ لمجتمع الطوائف،

(1) سير أعلام النبلاء، 18 / 191؛ ابن حزم، الرسائل، 362 / 1.

(2) ابن بسام، المصدر السابق، 136 / 1.

(3) المقرئ، نفع الطيب، 83 / 2.

لقد أتيح لابن حزم أن يدرس الفقه في مذاهبه المختلفة وأن يقرأ كتب المذاهب المعتمدة طائفة غير قليلة، وقد رأى أن من أسباب الخلاف الشديد بينها أن القياس وما إليه من الاستحسان قد أصبح مركباً ذلولاً استطاع به جماعة من الفقهاء أن يوائموا بين أحكامهم وفتاواهم وبين مقتضيات الحياة الفاسدة التي أطرحت فيها مبادئ الخلق والضمير إطراحاً ومسخت فيها كل أصول الدين وآدابه مسخاً، فكانت ظاهرية ابن حزم هي رد الفعل لهذه الوصولية التي سادت عصر الطوائف، وكان ابن حزم أصح من تظهر على يديه حركة رد الفعل في شكل ثابت وقوي⁽⁵⁾.

وباستعراض نشاطه الفكري والثقافي وتمحيص مؤلفاته فسرى اننا أزاء رجل ذكي عميق التفكير له بديهة في الرد على أسئلة الخصوم وفي البت في القضايا المفاجئة، فقد كانت ذاكرته قادرة على الاحاطة والحفظ الكثير، فكان يحفظ عدداً ضخماً من الأحاديث بأسانيدھا، ويحفظ الكثير جداً من حوادث التاريخ بسلاسل رواھا. وحفظه لم يقتصر على القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه والتاريخ والنحو والأدب، بل أضاف إليها جانباً مهماً من العلم الطبيعي خاصة ومن العلم الرياضي ومن أصول علم النفس وقسطاً وافياً من الفلسفة اليونانية القديمة⁽⁶⁾.

هذه النماذج من فقهاء السلاطين شن ابن حزم حربه عليهم قائلاً: (فلا تغاضوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الظأن على قلوب السباع المزينون لأهل الشر شرهم الناصرون لهم على فسقهم)⁽¹⁾.

وفضلاً عن ذلك فقد كان لظهور التقليد في عصره وجود الفقهاء عليه سبباً آخر في ظاهرية، لأن بعض هؤلاء المقلدة يهجمون على الفتوى بغير علم بسنة ثابتة أو هدي مأثور. ويبرر ابن حزم هجومه عليهم بقوله: (لأنهم ليسوا من أهل الرواية فيعرفوا قوتها من ضعيفها، ولا اشتغلوا بها قط ساعة من الدهر، وما يعرفون إلا المدونة على تصحيفهم لها، وما عرفوا قط من الصحابة رجلاً ولا من التابعين عشر رجال)⁽²⁾.

ولأجل ذلك أطلق ابن حزم لسانه في الأئمة عكوف مقلديهم على أقوالهم ومغالاتهم في اعتقادهم ونسبتهم كل فضيلة اليهم وإن كان ذلك زوراً وكذباً فقال: (قال الله عز وجل: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾⁽³⁾، أوليت شعري أيشك هذا الجاهل الذي يسأل هذا السؤال في أن كل طائفة قلدت رجلاً من هؤلاء المذكورين، فانهم لولا أنه عندهم أفقه من سائرهم وأعلم وأفضل وأجل لما قلدوه دينهم)⁽⁴⁾.

ص 34.

(1) ابن حزم، رسالة التلخيص لوجه التلخيص، 3/ 173.

(2) رسائل ابن حزم، 3/ 82.

(3) سورة الروم، الآية رقم (32).

(4) ابن حزم، الرسالة الباهرة في الرد على أهل الأهواء الفاسدة،

ص 40.

(5) الحاجري، ابن حزم صورة أندلسية، ص 121؛ عبد الحليم

عويس، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي، ص 78.

(6) عمرو فروخ، ابن حزم الكبير، ص 55-56.

وقد أشاد الذهبي بابن حزم مبدياً اعجابه بقدرته على جمع كل تلك العلوم فقال: (كان اليه المنتهى في الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة وكثرة الكتب)⁽¹⁾.

ومن خلال البحث والنظر فان ابن حزم قد أصل ما يعرف عادةً بالمذهب الظاهري الذي كان ينادي بوجوب وجود الدليل الشرعي الواضح من القرآن والسنة لتثبيت حكم ما. ولهذا السبب كانت له حملات شديدة على مذهب مالك لأنه كان يفتي بالاستحسان والمصالح المرسله مما اضطره الى أن يؤلف كتاباً في إبطال الاستحسان. والملاحظ في كل ذلك ان سبب تنقله بين المذاهب والذي أجمع عليه كل الباحثين هي الرغبة والنزعة الفكرية الشديدة في التحرر من القيود التي وضعها الفقهاء والعودة الى الأصول فقط من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة⁽²⁾.

وهنا لا بد أن نشير الى أن ابن حزم لم يترك مذهبه بدون قواعد وضوابط مأخوذه من نصوص الشرع، فلأجل ذلك نراه يضع معالم وأسس لمنهجه الظاهري في معظم مؤلفاته وعلى اختلاف مواضيعها نستطيع أن نجملها بما يلي:

1 - التمسك بظواهر النصوص: وهذا هو أساس

معتقد مذهب وفي ذلك يقول: (واعلموا أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه، وجهر لا سر تحته، كله برهان لا مسامحة فيه.. وإياكم وكل قول لم يبين سبيله ولا وضح دليله)⁽³⁾.

2 - الأصول المعتمدة في الأحكام: وضح ابن حزم أن بيان الأصول التي تخرج عليها الفروع وتستنبط منها الأحكام بقوله: (الأصول التي لا يُعرف شيء من الشارع إلا منها أربعة: نص القرآن ونص كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو عن الله تعالى مما صح عنه عليه السلام ونقله الثقات أو التواتر وإجماع جميع علماء الأمة عليه ودليل منها لا يحتمل إلا وجهاً واحداً..⁽⁴⁾.

3 - نبذ التقليد: وفي هذا المجال يحذر ابن حزم أشد التحذير منه ويذم المقلدة فيقول: (والتقليد حرام ولا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان..)، ويؤكد تحذيره في موضع آخر ويحث على الاجتهاد فيقول: (ولا يحل أحد أن يقلد أحد لا حياً ولا ميتاً، وكل أحد له الاجتهاد حسب طاقته، فمن سأل عن دينه فانما يريد معرفة ما أَلْزَمَهُ الله عز وجل في هذا الدين ففرض عليه إن كان أجهل أهل البرية أن يسأل عن أهل موضعه)⁽⁵⁾.

4 - إنكار القياس: أنكر ابن حزم القياس وهاجم

(3) ابن حزم، الفصل في الأهواء والملل والنحل، 2/116.

(4) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، 1/71.

(5) (143) ابن حزم، المحلّ، 1/86.

(1) العبر في خبر من غير، 1/241.

(2) الحاجري، المرجع السابق، ص 126-127.

الداعين اليه ونقض أدلتهم جملة وتفصيلاً بقوله: (وذَبَّ أصحاب الظاهر الى إبطال القول بالقياس في الدين جملة وقالوا لا يجوز الحكم البتة في شيء من الأشياء كلها إلا بنص كلام الله تعالى أو نص كلام النبي صلى الله عليه وسلم أو بما صح عنه صلى الله عليه وسلم من فعل أو إقرار أو إجماع من جميع علماء الأمة كلها متيقن أنه قاله كل واحد منهم دون مخالف من أحد منهم أو بدليل من النص⁽¹⁾).

5 - إنكار الرأي والتعليل: حزم ابن حزم العمل بظاهر النصوص وعدم إحالتها الى معاني مؤولة إلا بقرينة من نص أو إجماع صحيح مُعتبر، واحتج ابن حزم بقوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾⁽²⁾ وكذلك بالآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾⁽³⁾.

ومن خلال هذه الآيات الكريبات يبطل ابن حزم الاجتهاد بالرأي في الدين، والحكم ينسحب على القياس والاستحسان وسد الذرائع ومراعاة المصالح. فهو يرى أن كمال الشريعة وإحاطتها بكل شيء أن النصوص الشرعية لم تفرط في شيء، وأن الشريعة أحاطت بكل كبيرة وصغيرة تفصيلاً وبياناً، وإن النص قد استوفى جميع الدين، فاذا كان كذلك فلا حجة لأحد

الى القياس ولا الى رأيه أو رأي غيره⁽⁴⁾. وبسبب كل تلك المواقف الصلبة فقد جرّت على ابن حزم المشاكل والفتن، وقد نقل لنا كل مترجميه أنه رحمه الله كانت فيه حدّة قوية جداً، فيها غضب وعنف واضح يرتسم على وجهه ولسانه في معظم مناظراته وخصوماته مع الفقهاء والعلماء حتى قيل فيه ان لسان ابن حزم وسيف الحجاج كانا شقيقين⁽⁵⁾. وهذا لم يأت عن فراغ بل هو يجادل ويدافع عن آرائه، وقد ثبت له معظم مترجميه ذلك تمسكاً بالحق وإقراراً له. فهذا هو ابن سعيد المغربي يقول: (كان يجادل عن علمه هذا من خالفه على استرسال في طباعه ومُدلّ بأسراره واستناداً الى العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده ليسيئنه للناس ولا يكتمنونه)⁽⁶⁾.

إذن ومن هذا النص نفهم انه ولشدة تمسكه بالحق بما بدا له، فقد تمسك به وجادل عنه بكل ما أوتي من قوة، وقد ذهب المؤرخون الى أبعد من ذلك عندما قالوا: (فلم يك يلفظ بما عنده بتعريض ولا يرفّه بتدريج، بل يصكّ به صكّ الجندل وينشقه آخر من الخردل، فطفق الملوك يقصونه عن قريهم ويسيرونه عن بلادهم)⁽⁷⁾. وقال آخرون: (فينفر عنه القلوب ويوقع

(4) ابن حزم، الاحكام، 6/35؛ البدري، أثمار في سماء الأندلس، ص123.

(5) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 18/199.

(6) المغرب في حلى المغرب، 1/354.

(7) المصدر نفسه، 1/354.

(1) ابن حزم، الإحكام، 8/386.

(2) سورة الأنعام، الآية رقم (38).

(3) سورة النساء، الآية رقم (59).

بها الندوب⁽¹⁾.

ونتيجة لكل ذلك فقد علم ابن حزم أن أهل بلده غير تاركيه وما اختار، وانهم لا بد مخالفون له ناقمون عليه لشيء طبعوا عليه من الزهد في العالم فنراه يقول: (..ولا سيما أندلسنا فانها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم، واستقلالهم كثيراً ما يأتي به واستهجانهم حسناته وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته بأضعاف ما في سائر البلاد! إن أجاد قالوا: سارق مُغير ومنتحل مبدع، وإن توسط قالوا: غث بارد وضعيف ساقط، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا: متى هذه؟ ومتى تعلم؟ وفي أي زمان قرأ؟)⁽²⁾.

كل تلك الحالات جعلت من ابن حزم إنسان غريب الطباع، حاد المزاج، سريع الانفعال. وقد أجاد العلامة أبو زهرة في وصفه لابن حزم وما حلّ به أمره فقال: (ما أحسنه من إرادة السوء وإنزال الأذى، وأيّ أذى أشد وأعظم أثراً في نفس العالم من أن يرى جهوده وثمرات فكره تحترق بين يديه ويشهد العالم احتراقها، ان ذلك يخرج الحليم عن حلمه، فكان بلا شك كيد خصومه له من أسباب حدّته، بل من أعظم أسبابها)⁽³⁾.

ومن يقرأ رسالته (الرد على الهاتف عن بعد) فسيرى ان ابن حزم لم يكن يتجنّى على خصومه، وإنما يدافع عن نفسه ويرد التهم الظالمة التي كالحا له أعداءه بغير

وجه حق لينتقصوا من قدره العلمي وكذلك من منزلته الاجتماعية كواحد من كبار رجالات وشخصيات المجتمع الأندلسي. ولذلك فهو يسارع ليرد على تلك التهم بأسلوب علمي رصين ومتقن معزّزاً بالحجة الدامغة والدليل القاطع يتخللها ردود قاسية جداً تجاه خصمه لأنهم أساءوا الحوار العلمي البناء والمفيد، وانتقدوه بأسلوب غير مؤدّب ولا مقبول وبها لا يرضاه أي إنسان من عامة الناس فكيف بعالم أو فقيه أو محدّث كابن حزم! ولذلك فما كان منه إلا أن يرّد الصاع صاعين ويطلق لسانه وقلمه ويُجرّس ألسنة خصومه بحجته العلمية الدامغة وبأسلوبه اللاذع المشهور، فعلى سبيل المثال نراه قد ألّف رسالتين عنوانها: (رسالتان أجاب فيها عن رسالتين سُئِلَ فيها سؤال تعنيف)⁽⁴⁾.

وقد وصف تلك الخصلة الدكتور طه الحاجري معقّباً على أحد كتب ابن حزم: (إذا أقبلت على الكتاب وجدته رجلاً قوي الشخصية عظيم الاعتداد بنفسه الى أبعد غاية، ولكنه اعتداد قوامه الفهم العميق، والعقل المحكم الوثيق، والعلم الواسع الدقيق، والقدرة البالغة على التغلغل في بواطن الموضوعات التي يعالجها، واستشفاف ما عسى أن يكمن وراءها وعلى الجدل والمناظرة، وعلى الإقناع أو الإفحام)⁽⁵⁾.

(1) ابن بسام، الذخيرة، 1/136.

(2) الإحكام في أصول الأحكام، 2/120.

(3) ابن حزم حياته وعصره، ص 81.

(4) ينظر الصفحات 125-119، وهي ضمن رسائل ابن حزم.

(5) ابن حزم صورة أندلسية، ص 6.

الاستنتاجات

ودافع عنه، قبل أن يخرج للناس بمذهبه المسمى الظاهري الذي يأخذ بظواهر النصوص من الكتاب والسنة واجماع الصحابة ويرفض القياس والرأي.

6 - رغم كل المحن السياسية والعلمية التي تعرض لها ابن حزم كانت له ارادة صلبة وعزيمة ثابتة تمثلت بولائه المطلق للدولة الأموية، وتحمل السجن والنفي واحراق كتبه ولم يتنازل عن مبادئه.

7 - تمثل صراعه مع فقهاء المالكية بالموضوعية والعلمية الشديدة، فكان يفحهم بردوده واجوبته العلمية والمنطقية.

8 - لم تكن مؤلفات ابن حزم باتجاه واحد، بل كان موسوعيا يكتب في الفقه والأصول والتاريخ والفلسفة والمنطق والأدب والأديان والفرق والملل والنحل، فكان بحق ثروة علمية كبيرة لا تستحق كل ملاقاه مع عداوة وبغضاء من حكام وعلماء ذلك الوقت.

المصادر

* الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، علي بن محمد (ت456هـ). ط1، دار الحديث، القاهرة، 1404هـ.

* أبجد العلوم، القنوجي، أحمد صديق خان (ت1307هـ). دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

* الاستقصاء لدول المغرب، الناصري أبو العباس أحمد بن خالد (ت1315هـ) دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب.

* الاحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن

من خلال الدراسة والبحث عن شخصية وعصر ومعاناة ابن حزم نستطيع أن نجمل أهم النتائج المستخلصة من ذلك.

1 - كانت الأندلس تنعم بالاستقرار السياسي والتفوق العلمي بسبب سياسة خلفائها الأوائل الذين كانت لهم غزوات حصنوا فيها الثغور والحدود وفرضوا الجزية على بلاد الفرنجة، مما انعكس ايجاباً على المجتمع الأندلسي.

1 - كانت الأندلس بصورة عامة وقرطبة بصورة خاصة في عهدي الخلافة والامارة في قمة عطاها العلمي والأدبي، فقد اهتم خلفائها بالنواحي الحضارية والعلمية وأغدقوا الأموال الطائلة لشراء نفائس الكتب من مختلف البلدان وأنشؤوا مكتبات كبيرة لاسيما في قرطبة التي شهدت نهضة علمية كبيرة تمثلت ببناء جامعة قرطبة في مسجدها الجامع.

2 - تميزت قرطبة على سائر مدن الأندلس بالجانب العلمي والفكري حتى عام 400هـ حين تغلب البربر عليها وخربوا معالمها.

4 - تميز العصر الذي عاش فيه ابن حزم بالفوضى والاضطراب وشهدت البلاد تقلبات سياسية كان من نتائجها تخريب معالم قرطبة وسائر المدن بسبب عبث بعض الحكام والولاة.

5 - درس ابن حزم المذهب الشافعي وعمل به فترة من الزمن، ثم درس مذهب داود الظاهري ونقحه

- الخطيب، محمد عيد السلمي (ت776هـ) شرحه: المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1960.
- يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- * بغية الملتبس في تاريخ أهل الأندلس، الضبي، أحمد بن يحيى (ت599هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ.
- * البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي (ت695هـ) تحقيق: بروفنسال، دار الثقافة، بيروت.
- * جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، علي بن محمد (ت456هـ) تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة مصر، 1982.
- * جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس، الحميدي، محمد بن فتوح الأزدي (ت488هـ) تحقيق: ابراهيم الأبياري، القاهرة.
- * الحلة السراء، ابن الأبار، محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي، (ت658هـ) تحقيق، حسين مؤنس، ط1، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، 1963.
- * الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام علي بن بسام الشنتري (ت542هـ) تحقيق: احسان عباس، بيروت، 1978.
- * سير أعلام النبلاء، الذهبي، شمس الدين أحمد بن محمد (ت748هـ). تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1413هـ.
- * الصلة في تاريخ علماء الأندلس، ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك الخزرجي، (ت578هـ) الهيئة المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1960.
- * طبقات الأمم، صاعد بن أحمد الأندلسي (ت462هـ) تحقيق: حياة العيد، ط1، دار الطليعة، بيروت، 198.
- * طبقات الحفاظ، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ) دار الكتب العلمية، بيروت.
- * طوق الحمامة، ابن حزم، علي بن محمد (ت456هـ) ضمن الرسائل، تحقيق: احسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2007.
- * العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الاشيلي (ت808هـ) طبعة بيروت، 1961.
- * العقد الفريد، ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت328هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، 1404هـ.
- * الفصل في الأهواء والملل والنحل، ابن حزم، علي بن محمد (ت456هـ) مكتبة الخانجي، القاهرة.
- * المحلى في شرح المجلى، ابن حزم، علي بن محمد (ت456هـ) دار الفكر، بيروت، (دت).
- * معجم الأدباء، الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت626هـ) تحقيق: احسان عباس، دار الغرب الاسلامي، بيروت، (دت).
- * المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى الغرناطي (ت685هـ) تعليق: خليل

- منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ.
- * ابن حزم الأندلسي ومنهجه في دراسة الأديان، مجيد خلف منشد، دار ابن حزم، 2001.
- * ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، الطاهر المكي، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1975.
- * ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه وفكره التربوي، حسان محمد، دار الفكر العربي، القاهرة، دت.
- * تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، نقله الى العربية منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1977.
- * تاريخ الفكر الأندلسي، أنخل بالنثيا، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الإسلامية، بيروت، 1959.
- * تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1972.
- * الحضارة العربية في اسبانيا، ليفي بروفنسال، ترجمة الطاهر مكي، ط1، دار المعارف، بيروت، 1979.
- * دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1969.
- * الدولة العامرية، محمد عبد الله عنان، ط1، مطبعة مصر، القاهرة، 1958.
- * في الأدب الأندلسي، جودت الركابي، طبعة القاهرة، 1960.
- * قرطبة في التاريخ الاسلامي، جودت هلال، دار القلم، بيروت، 1962.
- * نوابغ الفكر الاسلامي، أنور الجندي، دار الرائد العربي، بيروت، 1983.
- منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ.
- * النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف الأتابكي (874هـ) دار الكتب، القاهرة، (دت).
- * نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، محمد بن محمد (ت758هـ) تحقيق: احسان عباس، دار صادر، بيروت.
- * وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، شمي الدين أحمد بن محمد (ت681هـ) تحقيق: احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968.
- المراجع**
- * ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي، زكريا ابراهيم، طبعة القاهرة، 1966.
- * ابن حزم صورة أندلسية، طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت، 1982.
- * ابن حزم الأندلسي حياته وأدبه، عبد الكريم خليفة، طبعة بيروت، (دت).
- * ابن حزم الأندلسي عصره وفقهه وآراءه، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997.
- * أقطار في سماء الأندلس، ياسر محمد البدر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011.
- * ابن حزم الكبير، عمر فروخ، ط1، دار لبنان للطباعة والنشر، 1980.
- * ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، 2010.